يزيد بن معاوية

« حياته وعصره »

تأليف
د . عمر سليمان العقيلي
كلية الآداب / جامعة الملك سعود

الرياض
١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

وافقت المديرية العامة للمطبوعات على طبع وتداول هذا الكتاب بموجب الخطاب رقم ٢٩٠٣/م بتاريخ ١٤٠٨/٥/١٧هـ .

المحتويـــــات

ـــ الفصل الأول : يزيد بن معاوية ، حياته وأعماله قبل تولّيه الخلافة :
(أ) مولده ونسبه ونشأته .
(ب) مبايعته بولاية العهد .

ـــ الفصل الثاني : خلافته والأحوال السياسية العامة في عهده (٦٠ ـــ ٦٤هـ)

ـــ الفصل الثالث : موقف المعارضة من خلافته :
(أ) موقف أهل الكوفة ، ووقعة كربلاء (٦١هـ/٦٨٠م) .
(ب) موقف أهل المدينة ، ووقعة الحَرّة (٦٣هـ/٦٨٣م) .
(جـ) موقف عبدالله بن الزبير في مكة (٦٤هـ/٦٨٤م) .

ـــ الفصل الرابع : محنة الخلافة الأموية بعد وفاة يزيد بن معاوية .

ـــ الخاتمـــة
ـــ فهرس المصادر والمراجع .



بسم الله الرحمن الرحيـــم

مقدمـــــة

إن الباحث في سيرة يزيد بن معاوية لابدّ أن يدخل في متاهات كثيرة وذلك نظراً لكثرة ما تناقلته ألسنة الرواة ، وماحوته بطون الكتب عن فترة خلافته من أحداث . ولم يكن هذا الاهتمام المتزايد حبّاً في شخص يزيد بقدر ما كان ترجمة لمشاعر الناس وأحاسيسهم عن الأحداث الدامية التي وقعت في عهده والتي تتمثل في مقتل الحسين بن علي (رض) في كربلاء (٦١هـ/٦٨٠م) وفي دخول جيش أهل الشام المدينة في وقعة الحَرّة (٦٣هـ/٦٨٣م) وكذلك دخولهم مكة وحصارهم البيت الحرام وضربهم الكعبة (٦٤هـ/٦٨٤م) .

لقد أدت سرعة تتابع تلك الأحداث وشدة تأثيرها على أفراد الأمة الإسلامية في ذلك الوقت إلى ذلك التناقض الواضح بين المؤرخين وإلى ازدياد حملات التشهير لديهم عند تناولهم سيرة يزيد فمن شواهد حملات التشهير هذه ، ما زعمه عمرو بن بحر الجاحظ في يزيد « أنه كان لا يمشي إلا سكراناً ، ولا يصبح إلا مخموراً » . (التاج في أخلاق الملوك ، القاهرة ١٣٣٢هـ ، ص ١٥١) . . ويورد البلاذري رواية مفادها أن يزيد بن معاوية كان « أول من أظهر شرب الشراب ، والاستهتار بالغناء والصيد واتخاذ القيان والغلمان والتفكه بما يضحك منه المترفون من القرود والمعاقرة بالكلاب والديكة . (أنساب الأشراف ، ج ٤ (١) ص ٢٨٦) . ويقول فيه أبو المحاسن بن تغري بردي : « وكان فاسقاً قليل الدين ، مدمن الخمر » (النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٦٣) ؛ ويقول فيه السيوطي : « إنه رجل ينكح أمهات الأولاد والبنات ، والأخوات ويشرب الخمر ، ويدع الصلاة » (تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٩) ؛ ويقول سيد أمير علي : « كان يزيد ظالماً وغداراً في وقت واحد ، ولم يكن من طبعه الشفقة أو الرحمة ، وكان منغمساً في ملذاته ، معاشراً لرفاق السوء » (مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف بعلبكي ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص ٩٠) .

لقد حاولت جهدي لأن أوفق بين مختلف روايات المؤرخين القدامى وأقوال الباحثين المحدثين بشأن يزيد . وأن أُبيّن أن شخصيته تلك تختلف ـــ فيما يبدو ـــ كثيراً عمّا أَلِفَه الناس عنه ، وأنه كان ضحيَّة الظروف الصعبة التي عاش فيها وواجهها فلم تترك له تلك الظروف فرصة لإثبات وجوده كخليفة ولم تعطه مجالاً كافياً لإظهار مقدرته وكفاءته الشخصية في معالجة هذه المشاكل . ولهذا ، فإن هذه الأمور كلها مجتمعة تجعل مهمة الباحث عسيرة عند القيام بتحليل شخصية يزيد وعصره .

لقد قسمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول . يتناول الفصل الأول منها مولد يزيد ونشأته في البادية ، ثم في دمشق ، وأثر ذلك عليه فكرياً واجتماعياً . كما تطرقت إلى بيعته ، والظروف التي أدّت بمعاوية لأن

يبايع له رغم وجود من هو أكفأ وأقدر منه على تحمّل المسؤولية .

ويبين الفصل الثاني تلك الإنجازات السياسية والحضارية التي تمت في عهد يزيد . وخاصة إشرافه على ترتيب الأمور الإدارية في الأقاليم ، سواء ما كان يختص منها بتعيين الولاة وتوجيههم ، أم من ناحية الفتوحات في أقاليم خراسان وبلاد ما وراء النهر وبلاد المغرب الإسلامي .

ويلقي الفصل الثالث الضوء على أبرز مظاهر السياسة الداخلية . وعلى تبيان سير الأحداث الدامية التي وقعت في عهد يزيد (مثل كربلاء والحرَّة وحصار الكعبة) . وقد حاولت فيه أن أتقصى أسباب هذه الأحداث ومراحلها ، ومن ثم تطرقت إلى نتائجها المباشرة . وتطرقت كذلك إلى توضيح بعض النقاط التي وردت في المصادر التاريخية حول مواقف العديد من الشخصيات الإسلامية بوجه عام ، حيال تلك الأحداث .

وأظن أن من الأمانة العلمية أن أذكر ما جاء في المصادر التاريخية الأولية عن مواقف يزيد تجاه تلك الأحداث . وعن ردّ فعل هذه المآسي عليه ، باعتباره خليفة المسلمين .

أما الفصل الرابع فيتحدث عن محنة الخلافة الأموية عقب وفاة يزيد (٦٤هـ) وتنازل ولده معاوية الثاني عن حقه في الخلافة دون أن يعيّن من يخلفه . وقد بيَّنت فيه كيف تمكن الأمويون من إعادة توحيد أنفسهم وعن الدور الذي لعبه شيوخ القبائل العربية في سبيل تثبيت الخلافة في بني أمية . وكذلك عن الأثر الذي تركه تعصّب القبائل العربية ضدّ بعضها البعض .

إنني ، وقد أنهيت كتابي هذا ، لأعترف بصعوبة البحث في التاريخ السياسي للدولة الأموية . وهذا راجع بالدرجة الأولى لكثرة الروايات التاريخية وتباين أهواء المؤرخين (قدماء ومحدثين) وميولهم الفكرية . وهذا ، مما لاشك فيه — يربك الباحث . ولهذا فإنني أرى أن الاتجاه لدراسة الجوانب الحضارية لهذه الدولة أولى وأجدى . إذ فيه إظهار لعظمتها ومجدها . لا سيما وأن كثيراً من مآثرها الحضارية لازالت ماثلة للعيان في كثير من البلدان العربية والإسلامية — كما أن تنظيماتها وقوانينها الإدارية والاجتماعية والاقتصادية قد أخذ بها وطورها من جاء بعدها من الدّول .

وجدير بالذكر أن بعض مواد هذا الكتاب قد سبق لي أن تناولتها في مقالات ثلاث نشرت في مجلة كلية الآداب بجامعة الملك سعود (الأعداد ١٢ (٢) ، ١٣ (١) ، ١٣ (٢) .

آمل أن أكون قد وفقت في عرض الأحداث بطريقة علمية موضوعية . إذ أن غرضي من هذا الكتاب لم يكن إلّا خدمة العِلْم لذاته. والله من وراء القصد .

ولا يفوتني أن أتقدم بوافر الشكر ، وخالص التقدير لأستاذي الدكتور محمد عبدالحي شعبان ، الذي علمني منهجية البحث العلمي ، وفن استخدام المصادر . وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور سامي خمَّاس الصقَّار ، والدكتور حمزة بن قبلان المزيني ، والدكتور محمد بن ثنيَّان الثنيان والأخ رفيق إبراهيم

العقيلي ، والأخوة الزملاء في قسم التاريخ . فلقد كان لاقتراحاتهم القيّمة ، وتشجيعهم المستمر ، أكبر الأثر في إنجاز هذا الكتاب .

وأقدم خالص تقديري وعظيم امتناني إلى زوجتي على الجهد الذي بذلته في توفير الظروف المناسبة لإنجاز هذه الدراسات .

الرياض ١٤٠٨/٦/٢٧هـ
١٩٨٨/٢/١٥م

عمر سليمان العقيلي

الفصــل الأول

يزيد بن معاوية : حياته وأعماله قبل توليه الخلافة

(أ) مولده ، ونسبه ، ونشأته :

لا تزودنا المصادر التاريخية بمعلومات كافية عن مراحل حياة يزيد الأولى . ولعل في استمرار حملة التعتيم على أخباره والتشهير بسيرته ،[1] سبباً رئيسياً في هذا الشأن .

ولد يزيد بدمشق حوالي سنة ٢٥هـ/٦٤٥م إبّان فترة إمارة والده على بلاد الشام في زمن الخليفة عثمان ابن عفان (رض) .

أما والده فهو معاوية بن صخر (أبي سفيان) بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف[2] . وأما والدته فهي ميسون بنت مالك بن بَحْدَل بن أُنَيْف بن دُلْجَة الكلبي[3] . وهي تنتسب إلى قبيلة كَلْب اليمانية التي ينتشر كثير من أفرادها في منطقة تدمر بسوريا وكذلك في إقليم الأردن . وتعتبر ميسون إحدى النِّساء الشّاعرات ومن مشاهير النساء في العصر الأموي . ويصفها ابن عساكر بأنها : « كانت امرأة لبيبَة »[4] . ولعل شهرتها في المصادر التاريخية لا تكمن في أنها كانت زوجة خليفة وأم خليفة[5] وحسب ، بل وتكمن أيضاً في أنها نظمت إحدى القصائد التي تعتبر من روائع الأدب العربي . إذ تصوّر فيها حنينها إلى العيشة البدوية في مضارب أهلها ، وتفضيلها إياها على نمط الحياة المتبعة في قصر الخضراء بدمشق حيث كانت تقيم ، فهي تقول :

لَبَيْتٌ تَخْفِقُ الأَرْيــاحُ فيــهِ ... أَحَبُّ إليَّ مِنْ قَصْرٍ مُنِيـفِ
وَبَكْـرٌ يَتْبَـعُ الأَظْعَـانَ صَعْبٌ ... أحبُّ إليَّ مِنْ بَغْلٍ زَفُوفِ
وكَـلْبٌ يَنْبَـحُ الطُّـراقَ عَنِّـي ... أحبُّ إليَّ مِنْ قِطٍّ أَلِيـفِ

---

(١) انظر ما ذكرته في المقدمة حول هذه المسألة .

(٢) انظر ، ابن قتيبة : المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، القاهرة ١٩٨١م ، ص٣٤٤ ؛ ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق علي البجاوي ، القاهرة (د . ت) ، ص١٤١٦ ؛ ابن الأثير : أُسد الغابة في معرفة الصحابة ، جـ٥ ، تحقيق محمد البنّا ، القاهرة (د . ت) ، ص٢٠٩ ؛ عمر سليمان العقيلي : خلافة معاوية بن أبي سفيان ، الرياض ، نشر المؤلف ١٤٠٤هـ .

(٣) محمد بن حبيب : المحَبَّر ، تحقيق ايلزه شتيتر ، بيروت ، دار الآفاق (د . ت) ، ص٢١ ؛ ويرى صالح حمارنه أن ميسون كانت «نصرانية من اليعاقبة» . (مجلد أبحاث المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، عمّان ١٣٩٤هـ ، ص٥٥٤ . راجع ، مصعب الزبيري : نسب قريش ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٥١م ، ص١٢٧ .

(٤) علي بن الحسن بن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النّساء) ، تحقيق سكينة الشهابي، دمشق ١٩٨٢م ، ص٢٩٧ .

(٥) علي بن حزم الأندلسي : أُمّهات الخلفاء ، تحقيق صلاح الدين المنجّد ، بيروت ١٩٨٠م ، ص١٤ .

ولُبْس عَبَاءة وتقرّ عَيْني	أحبُّ إليَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ
وأكْل كُسَيْرَةٍ في كِسْرِ بَيْتِي	أحبُّ إليَّ مِنْ أكْلِ الرَّغيفِ
وأصْواتُ الرِّياحِ بكُلِّ فَجٍ	أحبُّ إليَّ مِنْ نَقْرِ الدُّفُوفِ
وخِرْقٌ من بَني عمِّي نَحيفٌ	أحبُّ إليَّ مِنْ عِلْجٍ عَليفِ
خُشونَةُ عيشَتِي في البَدو أشْهَى	إلى نَفْسِي من العَيْشِ الطَّرِيفِ
فَما أبْغي سِوىٰ وَطَني بَديلاً	فَحسْبِي ذاكَ مِنْ وَطَنٍ شَريفِ[٦]

ولما وصلت هذه الأبيات إلى مسامع معاوية ، آلمه أن تصل الحال بزوجته إلى هذا القدر من عدم التأقلم مع مجتمع المدينة ، وعرف ما تخفيه من يأس حالها معه ، فأرسلها[٧] ومعها ولدها يزيد إلى أهلها في بادية الشام نواحي تدمر ، حيث نشأ يزيد هناك عند أخواله من قبيلة كلْب اليمانية . وكان معاوية يهدف من وراء ذلك إلى تحقيق عدة أمور أهمها : ضمان استمرار ولاء أبناء قبيلة كَلْب اليمانية ودعمها له ، إذ إنهم كانوا قوة لا يُستهان بها في بلاد الشام ، وأن يتعلّم ولده فنون الفروسية ، ويتحلّى بشمائل النخوة والشهامة والكرم والمروءة « إذ كان البدو أشدّ تعلُّقاً بهذه التقاليد »[٨] ، وكانوا يتفاخرون بها فيما بينهم . وأن يُعايش المشاكل المختلفة التي تتعرض لها فئات القبائل المتعددة ، ويتعرف على أمثل الطرق في فضّ النزاعات والخصومات التي كثيراً ما كانت تنشأ بينهم . وبهذا يكتسب خبرة وحنكة في الأمور الإدارية والاجتماعية والسياسية ، ولا سيما وأن أخواله يُعدون من وجهاء أهل الشام[٩] .

وهكذا اختار معاوية لولده يزيد الإقامة في البادية ؛ وذلك لكي يكتسب قدراً من الفصاحة في اللغة[١٠] ، وليتخلّص من الرطانة الآرامية التي كانت تهيمن على أبناء المدن في بلاد الشام . ويستفاد من روايات المؤرخين أن يزيد كان أول من أُرسل ـــ من أبناء البيت الأموي في بلاد الشام ـــ إلى البادية لينشأ فيها[١١] . ولعل حسن تنشئته ، والخصال الحميدة التي اكتسبها من مجتمع البادية ، وتحلّى بها ،

---

(٦) لتعدّد رواية أبيات هذه القصيدة ، انظر : ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ، ص٤٠٠ ؛ فيليب حتي : صانعوا التاريخ العربي ، ترجمة أنيس فريحه ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص٧٤ ؛ صلاح الدين المنجد : معجم بني أمية ، بيروت ، ١٩٧٠م ، ص٢٠٤ ؛ جبرائيل جبور : الملوك الشعراء ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص٢٨ ؛ محمد حسن عبدالله : صورة المرأة في الشعر الأموي ، الكويت ، مكتبة ذات السلاسل ، ١٩٨٧م ، ص٢٤٩ .

(٧) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ٤ ، قسم ١ ، ص ١٥٠ «وقال المدائني : طلّق معاوية ميسون وهي حامل» ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٨ ، ص ٢٢٧ ؛ القلقشندي : مآثر الإنافة ، جـ١ ، ص ١١٦ ؛ محمد بن طولون : قيد الشريد من أخبار يزيد ، تحقيق محمد زينهم عزب ، القاهرة ، دار الصحوة ، ١٩٨٦م ، ص ٢٥ . (وقد توفيت ميسون في حوالي سنة ٨٠هـ/٦٩٩ ـــ ٧٠٠م) .

(٨) جون باكوت كُلوب ، امبراطورية العرب ، ص١١١ .

(٩) الدينوري ، الأخبار الطوال ،ص١٥٩ ؛ نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ، ص٥٠ .

(١٠) القلقشندي ، مآثر الإنافة ، جـ١ ، ص١١٦ .

(١١) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ٤ ، قسم ١ ، ص١٥٠ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٥ ، ص١٦٠ ؛ القلقشندي ، مآثر الإنافة ، جـ١ ،ص١١٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٨ ، ص٢٢٧ .

قد دفعت الخلفاء الأمويين لأن يرسلوا أبناءهم إلى البادية فيما بعد . فيذكر المؤرخون عن عبدالملك بن مروان أنه ندم حين رأى ابنه الوليد شاباً لكنه يَلحَن في لغته ، فقال : « أضَرَّنا في الوليد حُبُّنا له ، فلم نُوجِّهْه إلى البادية »[١٢] .

وعندما رجع يزيد من البادية ، نشأ وتربَّى تحت إشراف والده معاوية في قصر الخضراء بدمشق . ونحن نعرف من المصادر التاريخية أن معاوية كان راوية للحديث النبوي الشريف[١٣] ، وأن يزيد روى أخبار أهل العلم عن والده بعد ذلك[١٤] . وقد اختار معاوية دَغْفَل بن حنظلة السَّدوسي الشَّيباني (ت ٦٥هـ/٦٨٥م)[١٥] مؤدباً لولده يزيد . وكان دَغْفَل عالماً بأنساب العرب ، وخاصة نسب قريش . وكذلك كان عارفاً بآداب اللغة العربية ، وعلم النجوم . وقد سأله معاوية ــ إذ كان معجباً به ــ عن كيفية حفظه لهذه العلوم ، فقال دَغْفَل بأنه قد أجاد هذا « بلسان سَئُول وقَلْب عقول »[١٦] . ويرى أحد الباحثين المحدثين أن « علم الأنساب كان له مجال في التعليم عند بني أمية ، ولعلنا لا نغالي إذا قلنا بأن كتاب التشجير ، وهو شجرة النَّسب ، الذي اقتبس منه الهمداني الكثير ، إنما وضع أساساً ليزيد بن معاوية »[١٧] .

وكان معاوية دائم الاتصال بمؤدبي ولده ، كي يتعرف على ما أحرزه ابنه من تقدم . كما كان يسأل ابنه عن أحواله مع المؤدبين . فتشير إحدى الروايات إلى أن معاوية سأله في أحد الأيام قائلاً : « أيَضْرِبك معلّمك يا يزيد ؟ . قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : ولم ؟ قال : لأنه اسْتَنَّ بِسُنَّة أمير المؤمنين في العدل »[١٨] .

وعلاوة على ذلك ، فإننا نجد روايات أخرى تشير إلى أن بعض المناظرات الثقافية كانت تقع بين معاوية وولده ، على الرغم من صغر سنّه مما يدلّ على مدى عمق ثقافته . فيروي ابن ظفر الصَّقلّي : « أن معاوية بن أبي سفيان قال لابنه يزيد ، وقد أتت عليه سبع سنين : يا بني في أي سورة أنت ؟ فقال : في السورة التي تلي ﴿ إنا فتحنا لك فتْحاً مبيناً ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾[١٩] يا أمير المؤمنين . فقال معاوية : يا بني ، إن هذه السورة تليها سورتان وهي بينهما ، ففي أيهما أنت ؟ قال : في السورة التي في أولها :

---

(١٢) ابن عبد ربه ، العقد ، جـ٥ ، ص١٦٠ .

(١٣) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، جـ١٠ ، ص٢٠٢ .

(١٤) ابن كثير ، البداية جـ٨ ، ص٢٢٦ .

(١٥) انظر ترجمة حياته في كتاب تهذيب التهذيب لابن حجر ، جـ٣ ، ص٢١٠ .

(١٦) ابن ظفر الصقلي ، كتاب أنباء نجباء الأبناء ، ص١٦٩ .

(١٧) محمد عيسى صالحية : «مؤدبو الخلفاء في العصر الأموي» ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، ١ (١٩٨١م) ، ص٤٧ .

(١٨) ابن ظفر الصقلي ، أنباء ، ص١٠٥ .

(١٩) سورة الفتح ، الآية رقم (١) .

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحقّ من ربّهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾[٢٠] فتمثل معاوية بقول حذافة بن غانم العدوي ، حيث يقول :

ملوك وأبنـــاء الملـــوك وَسَادةٌ	تفلّق عنهم بيضة الطائر الصّقر
متى تلقَ منهم ناشئاً في شبابه	تجده على أعراق والـده يجري
فهم يغفِرون الذّنب ينقم مثله	وهم تركوا رأي السَّفاهة والهجر »[٢١]

وقد اعتاد يزيد أن يرتاد مجالس السَّمَر التي كان يقيمها والده في قصر الخضراء بدمشق ويحضرها أعلام الفكر والأدب من أمثال دَغْفَل الشيباني ، وعبيد بن شَرِيَّة الجرهمي ــ صاحب كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين ــ فيستمع منهم إلى أخبار العرب والعجم والأدب وغيرها[٢٢] . ولاشك أن يزيد قد تأثر بطريقة أو بأخرى بآراء أولئك الذين كانوا يتردّدون على مجلس والده وبأفكارهم . فظهر تأثير هذه المجالس عليه في شعره[٢٣] ، وفي خطبه[٢٤] ، حتّى لقد عَدَّ سعيد بن المسيَّب يزيداً من بين خطباء قريش[٢٥] . ويروي المدائني « أن عبدالله بن عباس وفد إلى معاوية بعد وفاة الحسن بن علي ، فدخل يزيد على ابن عباس وجلس منه مجلس المعزّي . فلما نهض يزيد من عنده قال ابن عباس [ولعله أُعجب به] : إذا ذهب بنو حرب ، ذهب علماء الناس »[٢٦] .

وكان يزيد يستمع إلى نصائح والده ، وينفّذ ما كان يشير به عليه . فيذكر ابن عبد ربّه أن يزيد سمع أن عبدالرحمن بن حسَّان (بن ثابت)[٢٧] يمتدح أُخته رَمْلَة ، ويذكرها في شعره ، فشكاه إلى والده ، وطالبه بمعاقبته . لكن معاوية هدأ من روعه ، وقال له : « يا بنيّ ، لو فعلت ذلك لكان أشدّ عليك ، لأنه يكون سبباً للخوض في ذكره ، فيكثر مكثر ، ويزيد زائد ، اضرب عن هذا صفحاً ، واطوِ دونه

---

(٢٠) سورة محمد ، الآية رقم (٢) .

(٢١) ابن ظفر الصقلي ، أنباء ، ص١٠٥ ؛ وانظر : ابن سعد ، الطبقات ، جـ٣ ، ص٣٧٧ حول استعمال كلمة «يغفرون» ؛ وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٨ ، ص ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ .

(٢٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص١٣٢ ؛ وانظر وصفاً لمجلس معاوية في كتاب مروج الذهب للمسعودي ، جـ٣ ، ص ص ٢٩ ــ ٣١ .

(٢٣) انظر كتاب شعر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، جمعه وحققه ، د . صلاح الدين المنجد ، بيروت ، ١٩٨١م .

(٢٤) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، جـ١ ، ص٢٣٩ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٧٥ .

(٢٥) البلاذري ، أنساب الأشراف، جـ٤ ، قسم ١ ، ص٢٨٩ .

(٢٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٨ ، ص ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩ .

(٢٧) هو ابن الشاعر المشهور حسان بن ثابت الأنصاري . ولد سنة ٦هـ/٦٢٧م في المدينة المنورة ، وأقام فترات في دمشق . توفي سنة ١٠٤هـ/٧٢٢م ، وعمره ٩٨ عاماً . (ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، جـ٦ ، ص ص١٦٢ ــ ١٦٣ ؛ الزركلي ، الأعلام ، جـ٤ ، ص٧٤، سزكين ، تاريخ التراث العربي ، المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، ص ص ١٧٤ ــ ١٧٥) .

كشحاً » . وحصل بعد ذلك أن شبَّب عبيدالله بن قيس الرقيات[٢٨] بعاتكة بنت يزيد في شعره « فلم يعرض له يزيد ، للذي تقدم من وصاية معاوية في رَمْلَة »[٢٩] .

وبالمقابل ، فقد كان معاوية أيضاً يشجّع ولده يزيد على إبداء رأيه بحريَّة ، وذلك حتى يعطيه فرصة يبرز فيها مواهبه وشخصيته ، وليدرّبه على مواجهة الأمور . فيروى البلاذري أن يزيد عبَّر عن رأيه في سياسة والده المتهاونة مع الناس ، فقال أمام والده : « لقد أفرطت في الحِلْم حتى خِفْتُ أن يعدَّ ذلك منك ضعفاً وجُبناً . فقال له معاوية : أي بنيَّ ، فإنه لا يكون مع الحِلْم نَدامة ولا مَذمَّة »[٣٠] .

ومما لاشك فيه ، أن جهود معاوية في رعايته لولده قد آتت ثمارها . فيروي صاحب كتاب « الإمامة والسياسة » أن معاوية كان « إذا أتَت الأمور المشكلةالمعضلة ، بعث إلى يزيد يستعين به على استيضاح شبهاتها ، واستسهال معضلاتها »[٣١] .

وأخيراً ، ولكي يطمئن معاوية على مقدرة ولده ، ومدى كفاءته لمواجهة الشدائد والأمور الجسام ، قام بإرساله قائداً للمدد الذي وجّهه لمعاونة الجيش الإسلامي المحاصر لمدينة القسطنطينية في سنة ٤٩هـ/٦٦٩م . وكان هذا المدد يشتمل على شخصيات تتمتع بمكانة مرموقة بين جميع المسلمين ، أمثال : عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن الزبير ، وأبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري ، رضي الله عنهم أجمعين . وتشير المصادر التاريخية إلى أن يزيد أبلى في هذا الحصار بلاء حسناً مما حدا بالمؤرخين أن يمتدحوه في كتاباتهم[٣٢] .

---

(٢٨) هو عبيدالله بن قيس الرقيات . ولد بعد سنة ١٠هـ/٦٣١م ، في مكة ، وقضى بها شبابه . ثم انتقل إلى المدينة . وبعد سنة ٣٧هـ/٦٥٧م عاش في الشام ، ثم عاد إلى الحجاز سنة ٦٣هـ/٦٨٣م . ويعد من أشهر الشعراء الخمسة في قريش . وتوفي في مصر . (ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ص ص ٣٤٣ ــ ٣٤٥ ؛ الزركلي ، الأعلام ، جـ٤ ، ص٣٥٢ ، سزكين ، تاريخ التراث العربي ، م٢ ، جـ٣ ، ص ص ١٦٦ ــ ١٦٧) .

(٢٩) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٦ ، ص ص ١٤٨ ــ ١٤٩ .

(٣٠) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، قسم ١ ، ص٧٩ . وانظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٢ ، ص ص ١١٦ ــ ١٢٥ (باب الحِلْم) ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٤ ، ص ص ١٢ ــ ١٣ .

(٣١) انظر ، كتاب الإمامة والسياسة (المنسوب لابن قتيبة) ، جـ١ ، ص ص ١٦٦ ــ ١٦٧ .

(٣٢) راجع : «رسالة في الردّ على ابن غرسية لأبي الطيب بن منّ الله القروي» وعنوانها : «حديقة البلاغة ودوحة البراعة ، المورقة أفنانها ، المثمرة أغصانها بذكر المآثر العربية ، ونشر المفاخر الإسلامية ، والردّ على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم الأعجمية» . منشورة في كتاب نوادر المخطوطات ، جـ١ ، ص٣ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ، ١٩٧٢م ؛ ابن خياط ، التاريخ ، ص١٥٩ ، أبو زرعة الدمشقي ، تاريخ ، جـ١ ، ص١٨٨ ، البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، قسم١ ، ص٨٦ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، جـ١٦ ص٣٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص ص ٤٥٨ ــ ٤٥٩ ؛ ابن ظفر الصقلي ، كتاب أنباء نجباء الأبناء ، ص ص ١٠٦ ــ ١٠٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ٨ ، ص٢٢٩ ، إبراهيم العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص١٦٤ .

أما عن حياة يزيد الخاصّة : فتشير الروايات التاريخية أنه قد تزوج من فاختة [حَبَّة] بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة ، فولدت له معاوية ، وخالد ، وعبدالله الأكبر ، وأبا سفيان؛ وتزوج أم كلثوم بنت عبدالله بن عامر ، فولدت له عبدالله الأصغر (الذي يقال له الأسوار) ، وعمر ، وعاتكة؛ وتزوج امرأة من غسَّان، فولدت له ابنته رَمْلةَ ؛ وتزوج أم مسكين بنت عمر بن عاصم بن عمر بن الخطاب (رض) ، لكنه طلَّقها فيما بعد(٣٣) ، ولم ينجب منها .

(ب) مبايعة يزيد بن معاوية بولاية العهد :

تعدّ بيعة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان أول حدث تاريخي من نوعه واجه المسلمين بعد انتهاء عهد الخلفاء الراشدين ، حيث عهد معاوية إلى ابنه يزيد بالخلافة . وسنحاول هنا دراسة هذه البيعة والأسباب التي أدت إليها وآراء المؤرخين فيها ، وما ترتب عليها من نتائج .

لقد توفي الرسول الكريم ﷺ في سنة ١١هـ/٦٣٢م دون أن يسمّي من يخلفه . فاختار المسلمون أبا بكر الصديق (عبدالله بن أبي قحافة التيمي) رضي الله عنه ، وبايعوه خليفة لرسول الله ﷺ . وكان ذلك في سقيفة بني ساعدة (في ضاحية الأنصار) بالمدينة ؛ وكانت هذه بيعة خاصة . ثم تلتها البيعة العامة في المسجد النبوي مباشرة(٣٤) .

أما أبو بكر (رض) فقد اختار عمر بن الخطاب (رض) ليخلفه في قيادة المسلمين ، وتسيير أمور الأمة الإسلامية (١٣هـ/٦٣٤م) . وذلك بعد أن استشار كبار الصحابة في هذا الاختيار . وأقروه عليه . فكان لهذا الاختيار أثر كبير في ضمان استمرار الأمن والنظام .

وعندما طَعَن أبو لؤلؤة فيروز الفارسي (غلام المغيرة بن شعبة الثقفي)(٣٥) الخليفة عمر رضي الله عنه (٢٣هـ/٦٤٣م) ، وشعر بدنو أجله ، رفض أن يعيّن واحداً بعينه لخلافته . وكان مما قاله لجماعة الناس الذين طالبوه بذلك : « إن أستَخْلِفْ فقد استَخْلَفَ مَنْ هو خير مني — يعني أبا بكر (رض) — وأن أترك فقد ترك من هو خير منّي — يعني رسول الله ﷺ(٣٦) . ولما زادوا في الإلحاح عليه حَصَر أمر

---

(٣٣) مصعب الزبيري : نسب قريش ، ص١٢٨ — ١٣٢ ؛ ابن قتيبة : المعارف ، ص ٣٥١ — ٢ ؛ البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ٤ (١) ، ص ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٣٤) راجع : ابن هشام ، السيرة النبوية جـ٤ ، ص ص ٣٠٦ — ٣١١؛ البخاري ، صحيح البخاري ، جـ٤ ، ص ص ١٩٤ — ١٩٥ ، اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ص ١٢٣ — ١٢٧ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ١ ، ص ص ١٨٢٠ — ١٨٣٠ ؛ ابن عبد ربّه ، العقد الفريد ، جـ٥ ، ص ص ١٠ — ١٣ ؛ ابن تيمية ، منهاج السُّنة النبوية ، جـ١ ، ص ص ٨٣ ، ٣٤٢ — ٣٤٨ ، ٣٧١ — ٣٧٢ ؛ جـ٢ ، ص ص ٣٥ — ٣٨ ؛ عبدالعزيز الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، ص ص ٤٧ — ٤٨ .

(٣٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، جـ٣ ، ص ص ٣٤١ ، ٣٤٦ — ٣٤٧ ، ٣٥٠ .

(٣٦) ابن سعد ، المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ص ٣٤٢ — ٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٣ ، ص٦٥ ؛ ابن تيمية ، منهاج السنة ، جـ١ ، ص ٣٤٧ .

اختيار من يخلفه في جماعة للشورى مكونة من ستة أعضاء[٣٧] . وبعد مشاورات دامت حوالي ثلاثة أيام[٣٨] ،توصل الأعضاء إلى انتخاب عثمان بن عفان (رض) خليفة للمسلمين ، فبايعوه ، وبايعه سائر الناس بيعة عامة بعد ذلك . وقد أشار الإمام أحمد بن حنبل معلّقاً على ذلك بقوله : « ما كان في القوم أوكد بيعة من عثمان ، كانت بإجماعهم »[٣٩] . وقد أدّت بيعة عثمان (رض) إلى إنهاء حالة الترقب والانتظار التي كانت تهيمن على الأمة الإسلامية .

وقد امتدت خلافة عثمان رضي الله عنه ما يقرب من اثنتي عشرة سنة (٢٣ ــ ٣٥هـ/٦٤٣ ــ ٦٥٥م) . وقد شهدت فترة خلافته تنظيمات داخلية ، وفتوحات خارجية عديدة . إلّا أن جماعات من الخارجين في كل من البصرة والكوفة ومصر أضرموا نار الفتنة والفوضى في أقاليمهم ، ولم يلبثوا طويلاً حتى وصلت جموعهم المدينة ، وتمكنوا من قتل الخليفة عثمان (رض) ، هناك[٤٠] . ولما لم يتمكن الخليفة من تعيين من يخلفه ، فقد ظلت الأمة الإسلامية يوماً واحداً[٤١] تنتابها الهواجس والاضطرابات ، حتى هرعت وجوه المهاجرين والأنصار إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، فبايعوه أميراً للمؤمنين[٤٢] .

أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقد رفض أن يوصي لابنه الحسن (رض) من بعده عندما طلبت جموع الناس منه ذلك ، إثر اعتداء الخوارج عليه في ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ/يناير ٦٦٠م . وكان

---

(٣٧) هم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيدالله ،وسعد بن أبي وقاص ، وعبدالرحمن بن عوف ، رضي الله عنهم أجمعين . وقال عمر (رض) للناس : «فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي ﷺ : إنهم من أهل الجنة» (ابن عبد ربه ، المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٥) . ثم إن الخليفة عمر (رض) دعا أعضاء جماعة الشورى ، وقال لهم : «إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر إلّا فيكم ، وقد قبض رسول الله ﷺ ، وهو عنكم راض ، وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكني أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس» (ابن الأثير، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٦٦ ؛ وانظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ٢٦ ؛ الدوري ، مقدمة ص ص ٤٩ ــ ٥٠) . كما أوصى عمر (رض) بأن يحضر ولده عبدالله اجتماع جماعة الشورى شرط أن «لا يكون له من الأمر شيء» . (أبو العرب التميمي ، كتاب المحن ، ص٦٥) .

(٣٨) ابن سعد ، الطبقات ، جـ٣ ، ص ص ٦١ ــ ٦٢ ، ٣٤٤ ؛ ابن تيمية ، فتاوى ابن تيمية ، جـ٤ ، ص٤٨٠ .

(٣٩) ابن تيمية ، منهاج السُّنة ، جـ١ ، ص٣٦٩ .

(٤٠) ابن سعد ، الطبقات ، جـ٣ ، ص ص ٦٤ ــ ٧٧ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف، جـ٤ ، قسم ١ ، ص ص ٥٩٠ ــ ٥٩١ ؛ الدوري ، مقدمة ، ص ص ٥٠ ــ ٥٧ ؛ عماد الدين خليل ، في التاريخ الإسلامي ، ص ص ٢٦ ــ ٤٦ .

(٤١) ابن سعد ، الطبقات ، جـ٣ ، ص٣١ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، قسم ١ ، ص٥٧٨ . قارن : ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص١٩٢ .

(٤٢) الباقلاني : التمهيد ، ص ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ ؛ الدوري ، مقدمة ، ص٥٨ .

جواب عليّ رضي الله عنه ، لهم : « ما آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر »(٤٣) . ولعلّ إحجام عليّ عن تعيين من يخلفه يعود إلى سببين ، أولهما : أن الطّعنة التي تلقاها كانت نافذة بحيث لم يستطع معها أن يتدبر أمور نفسه ، فكيف به وهو يسيِّر أمور الأمة الإسلامية على تلك الحال . وثانيهما : أنه رغب في أن يتجنَّب أبناؤه تلك المشاكل والانقسامات المتعددة التي واجهها هو نفسه إبان فترة خلافته . ليس من معارضيه فحسب ، بل ومن مؤيديه وأتباعه أيضاً(٤٤) .

وعلاوة على ذلك ، فإن وصيّة عليّ ، رضي الله عنه ، الأخيرة قد جاءت خالية تماماً من أيّة إشارة بتولية العهد لأيّ من أبنائه ، أو لأيّ فرد من المسلمين(٤٥) . إلّا أن جماعة من أنصار عليّ ، والموالين له ، قد التفوا حول الحسن بن عليّ رضي الله عنهما ، وبايعوه خلفاً لوالده ، لكن تطورات الأحداث أثبتت للحسن أن جماعته ليسوا بأقل فرقة وانقساماً من ذي قبل . بل إنه فوجيء بأَحَدهم ، ويدعى الجَرَّاح بن سنان الأسدي ، يعتدي عليه ، ويطعنه بِمِعْوَل في أصل فخذه طعنة وصل بها حتى العظم(٤٦) . « فازداد (الحسن) لهم بغضاً ، وازداد منهم ذعراً »(٤٧) . فآثر ــ حينئذ ــ السِّلم والموادعة مع معاوية رضي الله عنه ، فبايعه في الكوفة سنة ٤١هـ/٦٦١م .

---

(٤٣) الطبري ، تاريخ ، جـ١ ، ص٣٤٦١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص٣٩١ . كما يشير ابن العربي (في كتابه، العواصم من القواصم ، ص ص ١٤٧ ــ ١٤٨) في معرض ردّه على الذين يرون بأن عليّا (رض) قد عهد إلى الحسن (رض) ، فيقول بأن علياً «ما عهد إلى أحد» . ويستشهد الأستاذ محب الدين بن الخطيب في تعليقه على هذه النقطة بالذات بما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (جـ١ ، ص١٣٠ برقم ١٠٧٨) عن وكيع عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن عبدالله بن سبع، قال : سمعت علياً يقول (وذكر أنه سيقتل) ، قالوا : فاستخلف علينا ، قال : لا ، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله ﷺ . قالوا : فما تقول لربّك إذا أتيته ؟ قال : أقول : اللهم تركتني فيهم ما بدا لك ، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم ، فإن شئت أصلحتهم ، وإن شئت أفسدتهم» . كما ونقل الحافظ ابن كثير في كتاب البداية والنهاية ، جـ٥ ، ص ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ ، عن الإمام البيهقي من حديث حصين بن عبدالرحمن عن الإمام الشعبي عن أبي وائل شقيق بن سلمة الأسدي أحد سادة التابعين أنه قيل لعلي (رض) : ألا تستخلف علينا ؟ قال : «ما استخلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فاستخلف ، ولكن إن يرد الله بالناس خيراً فسيجمعهم بعدي على خيرهم ، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم» . (انظر هامش رقم (١) ص١٤٨ من كتاب العواصم من القواصم لابن العربي . وشروحات الهامش على تلك الصفحة من إعداد الأستاذ محب الدين الخطيب) .

(٤٤) تروي المصادر التاريخية أن عليّا ، رضي الله عنه ، قد ضجّ منهم وابتهل إلى الله في دعائه قبل وفاته ، قائلاً : «اللهم قد سَئِمْتُهُمْ وسَئِمُوني ، فأرِحْهم مني وأرِحْني منهم» . (ابن سعد ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ص ٣٤ ــ ٣٦ ؛ وانظر : أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ص ٤٠ ــ ٤١) .

(٤٥) انظر الوصية كاملة في كتاب مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني ، ص ص ٣٨ ــ ٤٠ .

(٤٦) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٣ ، ص ص ٣٥ ــ ٣٦؛ الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٢١٧ ، اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٢١٥ .

(٤٧) أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص١٦٤ .

أما الحسين بن علي رضي الله عنهما ، فقد بايع معاوية ، ودخل فيما دخل فيه أخوه الحسن . ولعلّ ذلك راجع إلى المواقف المتذبذبة والمتهاونة ، التي وقفتها الجماعات الموالية للطالبيين من والده وأخيه من قبل ؛ فأدرك الحسين أن لا فائدة من الإذعان لمطالبهم . ويتضح ذلك جلياً من إجابة الحسين لتلك الجماعات عندما طلبوا منه أن يتقدمهم ويكون أميراً للمؤمنين بعد أخيه الحسن . لكن الحسين رضي الله عنه رفض طلبهم هذا ، وقال لهم : « إنا قد بايعنا وعاهدنا ، ولا سبيل إلى نقض بَيعتنا »(٤٨) .

أما معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله عنه ، فقد كان أول من جهر بأن يخلفه ابنه يزيد في منصب أمير المؤمنين . فكان بذلك أول من أدخل نظام الوراثة في مثل هذا المنصب في تاريخ الأمة الإسلامية(٤٩) . ولعلّ الخلافات والانقسامات في الرأي ، التي حصلت في الفترات السابقة كانت أكبر حافز لمعاوية في اتخاذه لمثل هذه الخطوة ، ظناً منه أنها ستجنّب الناس ما هُمْ في غنىً عنه من مشاكل . ومن ناحية أخرى ، يبالغ أحد الباحثين المحدثين في هذا الأمر إذ يرى : « أن معاوية قدر في نفسه أن موجة الفتوحات الناجحة التي قام صفوة المقاتلين من الصحابة والتابعين في عهده ، كانت تأخذ مدّها على مساحات واسعة ، وبلاد متعددة في الشرق والغرب . فلعلّه خشي أن يترك أمر الخلافة من غير نص على من يأتي بعده ، فيترتب على ذلك عودة الجيوش المقاتلة من ميادينها لتشارك في اختيار الخليفة . وفي هذه الحالة يفتح باب الترشيح لكثير من القواد والراغبين في منصب الخلافة . وهنا تكون الكارثة حين يلتف حول كل مرشح من يؤيده ويدعو إليه ، فتعود إلى الوحدة الإسلامية عوامل التفرق والتمزق .. وتنقسم إلى شيع وأحزاب ، ولا يجتمع لهم شمل ، ولا تقوم لهم بعدها قائمة »(٥٠) .

أما كيف بدأت فكرة معاوية في توليته ولده يزيد ولياً لعهده فأمر يختلف فيه المؤرخون المسلمون الأوائل . فتزعم بعض الروايات مثلاً أن المغيرة بن شعبة الثقفي (والي الكوفة من سنة ٤١هـ ــ ٥٠هـ/٦٦١ ــ ٦٧٠م) كان أول من أشار بذلك على معاوية . وذكروا أن معاوية كان يخطط لعزل المغيرة عن ولاية الكوفة ، وتعيين سعيد بن العاص بن أمية بدلاً منه . لكن المغيرة أراد تدارك الأمر ، فذهب إلى معاوية ، وفاتحه بفكرته قائلاً : « يا أمير المؤمنين ، إن الإنسان يغدو ويروح ، ولست في زمن أبي بكر ولا عمر ، فلو أنك نصبت لنا إنساناً نصير إليه بعدك ، كان الرأي على أنّي قد كنت دعوت أهل العراق إلى يزيد . قال : يا أبا محمد ، انصرف إلى عملك ، واحكم هذا الأمر لابن أخيك »(٥١) . ثم إن المغيرة أرسل عشرة من أشراف أهل الكوفة . يصحبهم ولده موسى ، إلى دمشق كي يدلّلوا لمعاوية على حسن نوايا أهل الكوفة ، واستحسانهم لفكرة المغيرة . وزاد المغيرة على ذلك بأن أعطاهم ثلاثين ألف درهم ليتوزعوها فيما بينهم . كما أن المغيرة طمأن معاوية على مقدرته على ضبط

---

(٤٨) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٢٢٠ .

(٤٩) العسكري ، الأوائل ، جـ١ ، ص٣٢٧ .

(٥٠) إبراهيم علي شعوط ، أباطيل يجب أن تُمحى من التاريخ ، ص ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥ .

(٥١) البيهقي ، المحاسن والمساوىء ، ص ص ١٤٠ ــ ١٤١ .

الأمور في الكوفة ، ووعده بأن زياد بن أبي سفيان سيكفيه أية اضطرابات في البصرة(٥٢) .

ورغم أن هناك كثيراً من الباحثين والمفكرين المحدثين يميلون لهذا الرأي(٥٣) ، إلّا أن الأستاذ عباس محمود العقاد صوَّر لنا أن المغيرة ــ بإرساله لهذا الوفد القليل العدد ــ كان يماطل معاوية ليتسنّى له الجلوس طويلاً في ولايته ، وبيَّن لنا أنه إذا لم يستحسن معاوية فكرة المغيرة ، فلا بدّ أنها ستَروق لولده يزيد ، وإذا لم ينفّذ الأب لولده ما استطابه ، فإن صراعاً سيقع بين الاثنين حتماً ، وفي كلتا الحالتين يكون المغيرة رابحاً . يقول العقاد : « وإن كانت المساومة على ولاية يزيد للعهد مجدية له فيما أراد ، فقد ربح ولم يخسر ، باع السَّمَك في البحر والشبكة من عند غيره ، وإن أعرض معاوية عن المساومة ولم يقبل عقد البيعة لابنه ــ وهو أبعد الفروض ــ فقد كسب الوالي المعزول ولاء يزيد ولم يفقد ولاء معاوية لأنه مفقود قبل ذلك ... ولعلّه يرمي من هذا التلويح بولاية العهد إلى استثارة الأمير المحروم ، وإغرائه بأبيه وانتقامه منه بالكيد له في حجاب الحرم إن لم يقدر على الانتقام منه بالثورة والعصيان ، ويقال بحق في جميع هذه الأحوال إن المخدوع من الرجلين ــ معاوية والمغيرة ــ لم يكن هو المغيرة إن كان لابدّ بينهما من مخدوع !! »(٥٤) .

على أنه يمكننا القول أن استنتاجات الأستاذ العقاد هذه ، ليس لها ما يؤيدها في المصادر التاريخية ، فالمغيرة ظل والياً على الكوفة حتى وفاته سنة ٥٠هـ/٦٧٠م . وأن العلاقة بين الرَّجلين كانت قائمة على الودّ والتفاهم التام. فلم يحدث أن فكَّر المغيرة في مثل تلك المساومات ، وفي زرع مثل تلك الضغائن ، ولم يحدث أن فكَّر معاوية في عزل المغيرة عن ولاية الكوفة . ولعل المؤرخين قرنوا بين عزل عبدالله بن عامر بن كُرَيز عن ولاية البصرة سنة ٤٥هـ/٦٦٥م وبين زيارة المغيرة لمعاوية ، واستنتجوا منها عملية عزل المغيرة . ثم إن المصادر تشير إلى أن بديل المغيرة كان سعيد بن العاص . ونحن نعرف أن أهل الكوفة لم يكونوا يميلوا لسعيد أو يقبلوا به على الإطلاق ؛ فهم الذين طردوه ، ورفضوا استقباله ثانية ، بعد أن كان

---

(٥٢) انظر : اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ص ص ٢١٩ ــ ٢٢٠ ؛ كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ١ ، ص١٤٢ ؛الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ص ١٧٣ ــ ١٧٤ ؛ العسكري ، الأوائل ، جـ١ ، ص٣٢٧ ؛ البيهقي ، المحاسن والمساوىء ، ص ص ١٤٠ ــ ١٤١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص ص ٥٠٣ ــ ٥٠٤ ؛ العصامي ، سمط النجوم العوالي ، جـ٣ ، ص ص ٤١ ــ ٤٢ .

(٥٣) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، جـ١ ، ص٢٨١ ؛ علي حسني الخربوطلي ، ١٠ ثورات في الإسلام ، ص٧٣ ؛ أحمد شلبي ، التاريخ الإسلامي ، جـ٢ ، ص ص ٤١ ــ ٤٢ ؛ طه حسين ، علي وبنوه ، ص ص ٢٠١ ، ٢٢٥؛ علي حبيبة ، دولة الأمويين ، ص ٥٦؛ الشيخ محمد الخضري ، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية) ، ص١١٦ ؛ عبدالعزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص٢٨٣ ؛ سيد أمير علي ، مختصر تاريخ العرب ، ص٩٠ .

(٥٤) عباس محمود العقاد ، معاوية بن أبي سفيان ، ص٣٦ . وانظر نقد الدكتور فتحي عثمان لآراء العقاد ، نشرها في كتابه : أضواء على التاريخ الإسلامي ، ص ص ١٠ ــ ١١ .

والياً عليهم زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، في سنة ٣٥هـ/٦٥٥م[٥٥] . فكيف بهم يقبلون به أميراً عليهم في زمن معاوية ؟! .

وهناك من المؤرخين من يرى أن عمرو بن العاص بن وائل السَّهمي ، الذي كان والياً لمعاوية على مصر (٣٨ ــ ٤٣هـ/٦٥٨ ــ ٦٦٣م) ، هو الذي عرض على معاوية فكرة توليته العهد لابنه يزيد من بعده ، وزيَّن له هذا الأمر ، وبيَّن له أهمية أن يختار خليفته من بين أفراد أهل بيته[٥٦] .

أما أبو الفرج الأصفهاني ، فيرى أن صاحب الفكرة هو يزيد بن معاوية نفسه . ويقدم لنا أبو الفرج رواية مفادها أن يزيد أراد أن يختبر مدى تأثير مثل هذه الفكرة على رجالات بني أمية عند سماعهم لها ، فما كان منه إلَّا أن طلب من الشاعر مسكين الدَّارمي[٥٧] أن يتحدث بهذه الفكرة في مجلس معاوية . فقام مسكين بما طُلب منه، وكان من جملة ما قاله :

إذا المنبرُ الغَربيُّ خَلَّاهُ رَبُّهُ ... فإنَّ أميرَ المؤمنينَ يَزيدُ

فلم يتكلّم أحد من بني أمية ، وقال معاوية لمسكين : « ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله »[٥٨] .

على أنه مهما ذكرنا من أمر هذه الروايات وتعدّدها ، فهناك حقيقة واحدة يجب ألّا تغيب عن أذهاننا وهي أن صاحب الفكرة الأول ، والمخطط الأساسي لها ، هو معاوية بن أبي سفيان نفسه . ويتضح ذلك جلياً من خلال الأقوال التي وردت على لسان معاوية حول هذا الموضوع . وهي تعبّر صراحة عما كان يجول في خاطره حيال هذا الأمر . فيروي البلاذري ، مثلاً ، أن معاوية سُمع مرَّة يقول : « أنا إن متّ فخليفتي ابني يزيد »[٥٩] . ويروي الطبري أن معاوية قال مرة : « إني أرهب أن أدَعَ أُمَّة محمد ﷺ بعدي كالضَّأن لا راعي لها »[٦٠] . ولعلّ ما أشار إليه الطبري يذكرنا بما رواه خليفة بن خياط من أن معاوية عندما اجتمع مع عبدالله بن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنهما في مكة (سنة

---

(٥٥) راجع : ابن سعد ، الطبقات ، جـ٥ ، ص ص ٣٢ ــ ٣٤ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، قسم ١ ، ص ص ٥٢٩ ــ ٥٣٦ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ١ ، ص ص ٢٩٠٧ ، ٢٩٥٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص ص ١٣٧ ــ ١٥٠ .

(٥٦) ابن أعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، جـ١ ، ص ١٧١/أ .

(٥٧) هو ربيعة بن عامر بن أُنيف ، ومسكين لقبه ، كان من بني دارم «تميم» . عاش في عهد أوائل الأمويين في الكوفة . أقام في دمشق أيضاً ، وألقى شعراً في مدح معاوية ، ووقف بشعره مع ولاية العهد ليزيد بن معاوية ، توفي سنة ٨٩هـ/٧٠٨م . (ياقوت ، إرشاد الأديب ، جـ٤ ، ص ص ٢٠٤ ــ ٢٠٦ ؛ الزركلي ، الأعلام ، جـ٣ ، ص١٤١ ؛ فؤاد سزكين ، تاريخ التراث العربي ، جـ٣ ، ص ص ١٥ ــ ١٦ .

(٥٨) أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، جـ٢٠ ، ص١٧٦ ؛ وفي كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص٣٤٧ : «إذا المنبر الغربي خلّا مكانهُ ...» .

(٥٩) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، قسم ١ ، ص ص ٣٨ ، ٤١ ، ٤٩ .

(٦٠) الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص١٧٦ .

٥٠هـ/٦٧٠م) ، قال معاوية : « أما بعد يا ابن عمر ، فإنك كنت تحدّثني أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء ليس عليك أمير ... »[٦١] . وهو تذكير يؤكد أن معاوية كان يخطط لتنفيذ فكرته هذه من قبل . فقد قال معاوية للذين نصحوه بأن يترك هذا الأمر كما تركه سابقوه : « إني لست آمن عليكم الاختلاف »[٦٢] .

وعلى أية حال ، فقد كتب معاوية قبل أن يتخذ أية خطوة حيال توليته يزيد العهد ، إلى كبار رجالات بني أمية يستشيرهم في هذا الأمر ، وليتعرف على مدى تقبّلهم له ، وذلك عملاً بالآية الكريمة ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾[٦٣] . وتأسياً بما كان يفعله النبي الكريم ﷺ ، من استشارته لصحابته في كثير من الأمور[٦٤] . ومما لاشك فيه أن معاوية كان يقدر أهمية التشاور قبل إقدامه على أية خطوة . وقد زودتنا المصادر التاريخية بأمثلة عديدة على ذلك[٦٥] .

وكان من الطبيعي أن يجد معاوية معارضة مبدئية من كثير من معاصريه وذلك أن الناس في تلك الفترة لم يكونوا قد تعوّدوا على مثل ذلك النظام . يضاف إلى ذلك شعور كبار رجالات بني أمية أن معاوية قد تخطاهم في هذا الأمر . إذ أن فيهم من هو أكبر سناً وأكثر حنكة ودراية من يزيد . ولكن معارضتهم لم تتعدَّ ، على أية حال ، أكثر من الخلاف في الرأي ، ثم ما لبثت تلك المعارضة أن تلاشت . فتروي المصادر التاريخية أن زياد بن أبي سفيان ، أظهر تعاطفاً مع الفكرة ، وكتب لمعاوية بأن يتروّى في هذا الأمر ، وأن يعدَّ يزيد إعداداً لهذه المسئولية . وأرسل رسالته تلك مع عُبيد بن كعب النّميري . فلما عاد كعب ، وأخبر زياداً عن رضى معاوية عن موقفه ، قَدَّر له زياد هذا النجاح ، فأقطعه أرضاً في العراق مكافأة له[٦٦] .

أما مروان بن الحكم ، فإن معارضته للفكرة كانت لا تنبع إلّا من كونه أكبر بني أمية سناً ، بالمقارنة مع يزيد[٦٧] . وقد جاء ذلك على لسانه عندما قابل معاوية في دمشق ، إذ قال له : « واعلم أن لك في قومك نظراً ، وأن لهم على مناوأتك وزَراً » . لكن معاوية كان متفهماً لوجهة نظره ، فردَّ عليه

---

(٦١) خليفة بن خياط ، كتاب التاريخ ، ص٢١٣ .

(٦٢) المصدر نفسه ، ص٢١٦ ؛ وانظر : ابن العربي ، العواصم ، ص١٦٤ .

(٦٣) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، الآية رقم (١٥٩) .

(٦٤) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ٢ ، ص ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ ، ٢٧٢ .

(٦٥) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ص١٥٨ ــ ١٥٩ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، قسم١ ، ص٢٥٧ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ١ ، ص٣٢٥٨ ، جـ٢ ، ص١٣٧ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الأغاني ، جـ١٧ ، ص ص ٩١ ــ ٩٢ .

(٦٦) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، قسم١ ، ص٩٠ ، الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ص ١٧٤ ــ ١٧٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ٣ ، ص ص ٥٠٥ ــ ٥٠٦ .

(٦٧) ولد مروان بن الحكم في سنة ٢هـ/٦٢٢م . (ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، جـ١ ، ص٩١) . وولد يزيد بن معاوية في سنة ٢٥هـ/٦٤٥م . (ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، جـ١١ ، ص ص ٣٦٠ ــ ٣٦١) .

بقوله : « فأنت نظير أمير المؤمنين بعده ، وفي كل شدَّته عضده ، وإليك عهد عهده ، فقد ولَّيتك قومك ، وأعظمنا في الخَراج سَهمك ، وأنا مُجير وفدك ، ومُحْسِن رفدك ، وعلى أمير المؤمنين غناك ، والنُّزول عند رضاك » . ثم أجازه وترضاه(٦٨) .

وبعد ذلك عقد معاوية اجتماعاً موسعاً في دمشق حضره مندوبون يمثلون مختلف رجالات القبائل العربية في بلاد الشام ، أمثال : الضحاك بن قيس الفهري ، وثور بن معن السُّلمي ، وعبدالله بن عضاة الأشعري ، وعبدالله بن مسعدة الفزاري ، وعبدالرحمن بن عثمان الثقفي ، وحسان بن مالك بن بحدل الكلبي ، وغيرهم . كما حضر محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري في وفد من أهل المدينة(٦٩) ، والأحنف بن قيس التميمي ، والجَوْن بن قَتَادة العبشمي ، وجارية بن قدامة السعدي في وفد من أهل البصرة(٧٠) .

وفي ذلك الاجتماع ، تكلَّم معاوية بن أبي سفيان أمام الوفود ، وذكر ابنه يزيد ، وفضله ، وعلمه بالسياسة، وعرض بيعته ، إذ قال : « أيها الناس ، لقد علمتم أن رسول الله ﷺ ، قبض ولم يستخلف أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر . وكانت بيعته بيعة هدى فعمل بكتاب الله وسنة نبيّه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمراً ، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيّه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر ، اختارهم من المسلمين، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله ﷺ، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر . كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين . فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف . ونظراً لهم بعين الإنصاف »(٧١) .

ثم تلاه الضحاك بن قيس الفهري فرحب بفكرته ، وأظهر ميلاً تجاهها . ثم قال : « يا أمير المؤمنين ، إنه لابد للناس من والٍ بعدك ، والأنفس يُغدى عليها ويُراح .. ويزيد بن أمير المؤمنين في حسن معدنه ، وقصد سيرته ، من أفضلنا حِلْماً ، وأحكمنا عِلْماً ، فولِّه عهدك ، واجعله عَلَماً بعدك ، وإنا قد بلونا الجماعة ، والألفة ، فوجدناه أحقن للدماء ، وآمن للسّبل ، وخيراً في العاجلة والآجلة »(٧٢) .

وتبعه الأحنف بن قيس التميمي ، فبايع ليزيد بولاية العهد ، ولم يبد أية معارضة جوهرية للفكرة . وكان مما قاله : « نخافكم إن صدقنا ، ونخاف الله إن كذبنا . وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره ، وسرّه وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله تعالى وللأمة رضىً فلا تشاور فيه ، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوّده الدنيا ، وأنت صائر إلى الآخرة ، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا »(٧٣) .

---

(٦٨) انظر : كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ١ ، ص ص ١٥٢ ــ ١٥٣ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٢٩ .

(٦٩) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٥ ، ص١١١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص٥٠٦ .

(٧٠) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٤ ، قسم١ ، ص٩٣ .

(٧١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، جـ١ ، ص١٦٣ ؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي ، بيروت ١٩٧٤م ، ص ١٤١ .

(٧٢) انظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٥ ، ص١١١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص٥٠٧ .

(٧٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٥ ، ص١١٢ .

وقام عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية فتكلَّم في الناس قائلاً : « أما بعد ، فإن يزيد بن معاوية أملٌ تأمَلونه ، وأجلٌ تأمَنونه ، فإن استَضَفْتُم إلى حِلْمِهِ وسعكم ، وإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم ، وإن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم ، جَذَعٌ قارحٌ سُوبِق فَسَبَق ، ومُوجدَ فمجَد ، وقُورعَ ففاز سهمُه، فهو خلف أمير المؤمنين، ولا خَلَفَ منه »(٧٤) .

وتحدث عبدالله بن عضاة الأشعري ، فقال : « وأنت يا أمير المؤمنين مسؤول عن رعيتك ، ومأخوذ بولايتك ، وأنت أنظر للجماعة وأعلى عيناً بحسن الرأي لأهل الطاعة ، وقد هديت ليزيد في أكمل الأمور وأفضلها رأياً وأجمعها رضاً ، فأقطع بيزيد قالة الكلام ، ونخوة الباطل ، وشعث المنافق ، واكبت به الباذخ المعادي ، فإن ذلك ألمّ للشعث وأسهل للوعث ، فاعزم على ذلك ولا تترامى بك الظنون »(٧٥) .

وتكلم كذلك أحد الشعراء ويسمَّى عقبة الأسدي ، فرحب بالفكرة ، ومدح يزيد، وبايعه بولاية العهد ، فأعطاه معاوية حوالي عشرة آلاف درهم مكافأة له على شعره(٧٦) .

ثم قام يزيد بن المقنَّع العُذري ، وبايع ليزيد ، ثم قال : « هذا أمير المؤمنين [وأشار إلى معاوية] ، فإن مات فهذا ، وأشار إلى يزيد »(٧٧) .

ومهما يكن الأمر ، فقد أسفر هذا الاجتماع عن مبايعة يزيد بن معاوية ولياً للعهد(٧٨) . ولعل من الأهمية أن نشير هنا إلى أن المتمعّن في أقوال المتحدثين في ذلك الاجتماع ، وهي أقوال صدرت عن أناس عركتهم الحياة ، وعلمتهم التجارب ، سوف يلمس أن كل واحد منهم كان يبغي النفع للصالح العام للأمة الإسلامية .

وفي حوالي سنة ٥١هـ/٦٧١م ، توجه معاوية وابنه يزيد إلى الحجاز ، لتأدية فريضة الحج ، ومن ثم للتعرف على وجهات نظر كبار أبناء الصحابة هناك [مثل : الحسين بن علي ، وعبدالله بن الزبير ، وعبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم] ، حول هذه القضيَّة . ونجد من خلال النقاش الذي حصل بينهم وبين معاوية أنهم اعترضوا على هذه الفكرة (الوراثة) بحجة أن هناك من هم أحق وأجدر من يزيد لتولي هذا المنصب الرفيع . هذا من ناحية . أما من الناحية الأخرى ، فنجد أن بعض المصادر التاريخية تشير إلى أن معاوية قد تشدَّد في مواقفه مع تلك الشخصيات حتى أخذ البيعة منهم

---

(٧٤) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، جـ١ ، ص٩٥ ؛ القالي ، كتاب الأمالي ، جـ٢ ، ص٧١ .

(٧٥) كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ١ ، ص ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٤ ، ص١٨٩ .

(٧٦) ابن أعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، جـ١ ، ص ١٧٥/أ .

(٧٧) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، جـ١ ، ص٢١٠ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٥ ، ص١١٢ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٢٨ ؛ القالي ، كتاب الأمالي ، جـ١ ، ص ص١٦٠ ــ ١٦١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص٥٠٨ .

(٧٨) راجع : خليفة بن خياط ، كتاب التاريخ ، ص٢١١ .

بالقوة[٧٩] . ولكننا ، على أية حال ، نلاحظ أن اليعقوبي يرى بأن معاوية قد « تألّف القوم ، ولم يكرههم على البيعة »[٨٠] . ثم رجع معاوية ويزيد بعد ذلك إلى دمشق .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المؤرخين والمفكرين المسلمين قد وقفوا حيال هذه الفكرة مواقف شتى . ففيهم المعارض ، ومنهم المؤيد . وكانت حجة الفريق المعارض تعتمد على ما أوردته بعض الروايات التاريخية التي تشير إلى أن يزيد بن معاوية كان شاباً لاهياً عابثاً ، مغرماً بالصيد ، وشرب الخمر ، وتربية الفهود والقرود والكلاب ... الخ[٨١] . ولكنا نرى أن مثل هذه الأوصاف لا تمثل الواقع الحقيقي لما كانت عليه حياة يزيد بن معاوية . فإضافة إلى ما سبق أن أوردناه عن الجهود التي بذلها معاوية في تنشئته وتأديبه ، نجد رواية في مصادرنا التاريخية قد تساعدنا على دحض مثل تلك الآراء . فيروي البلاذري أن محمد بن علي بن أبي طالب ــ المعروف بابن الحَنفيّة ــ دخل يوماً على يزيد بن معاوية بدمشق ليودّعه بعد أن قضى عنده فترة من الوقت . فقال له يزيد ،وكان له مكرماً : « يا أبا القاسم ، إن كنت رأيت منّي خُلُقاً تنكره نَزَعت عنه ، وأتيت الذي تُشير به عليّ ؟ فقال : والله لو رأيت منكراً ما وسعني إلّا أن أنهاك عنه ، وأخبرك بالحق لله فيه ، لما أخذ الله على أهل العلم عن أن يبيّنوه للناس ولا يكتموه ، وما رأيت منك إلّا خيراً »[٨٢] . كما أن مجرَّد موافقة عدد من كبار الشخصيات الإسلامية ، من أمثال : عبدالله بن الزبير ، وعبدالله بن عباس ، وأبي أيوب الأنصاري « والذي كان يزيد قريباً منه ، ويعوده في مرضه »[٨٣] . على مصاحبة جيشه في سيره نحو القسطنطينية فيها خير دليل على أنه كان يتميز بالاستقامة ، وتتوفر فيه كثير من الصفات الحميدة ، ويتمتع بالكفاءة والمقدرة لتأدية ما يوكل إليه من مهمات .

وبالرغم من كل ما سبق أن أوردناه من روايات ، فإن أحد الباحثين المحدثين قد أعطى حكماً قاطعاً بـ « عدم أهلية يزيد للخلافة »[٨٤] دون أن يناقش الآراء التي قيلت حول هذا الموضوع ، أو يقدم أي دليل تاريخي يعضّد رأيه . لكننا نجد وجهة النظر التي أبداها الأستاذ محب الدين الخطيب ــ حول هذه

---

(٧٩) ابن أعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، جـ١ ، ص١٨٠/أ ؛ كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ١ ، ص١٦٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص ص ٥١٠ ــ ٥١١ .

(٨٠) اليعقوبي ، التاريخ ، جـ٢ ، ص٢٢٩ ؛ وانظر الروايات التي يوردها ابن العربي في كتابه : العواصم من القواصم ، ص ص ١٦٠ ــ ١٦٥ .

(٨١) مصعب الزبيري ، نسب قريش ، ص١٢٧ ؛ كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ١ ، ص١٦٣ ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٢٢٠ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص١٧٤ ؛ ابن أعثم الكوفي : كتاب الفتوح ، جـ١ ، ص١٧٩/أ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص٦٧ .

(٨٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٣ ، ص٢٧٨ .

(٨٣) البيهقي ، المحاسن والمساوىء ، ص١٣٦ ؛ وانظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٥ ، ص ص ١٠٩ ــ ١١٠ .

(٨٤) علي حسني الخربوطلي ، ١٠ ثورات في الإسلام ، ص ص ٩٤ ــ ٩٥ ، وانظر ، أحمد شلبي ، التاريخ الإسلامي ، جـ٢ ، ص٤٥ ؛ علي حبيبة ، دولة الأمويين ، ص ص ٥٨ ــ ٦١ .

المسألة ــ جديرة بالأخذ بها للردّ على ما سبق ، فهو يقول : « إن كان مقياس الأهلية لذلك أن يبلغ مبلغ أبي بكر وعمر في مجموع سجاياهما ، فهذا ما لم يبلغه في تاريخ الإسلام ، ولا عمر بن عبدالعزيز . وإن طمعنا بالمستحيل وقدرنا إمكان ظهور أبي بكر آخر وعمر آخر ، فلن تتاح له بيئة كالبيئة التي أتاحها الله لأبي بكر وعمر . وإن كان مقياس الأهلية الاستقامة في السيرة ، والقيام بحرمة الشريعة ، والعمل بأحكامها ، والعدل في الناس ، والنظر في مصالحهم ، والجهاد في عدوهم ، وتوسيع الآفاق لدعوتهم ، والرفق بأفرادهم وجماعاتهم ، فإن يزيد يوم تُمحّص أخباره ، ويقف الناس على حقيقة حاله كما كان في حياته ، يتبين من ذلك أنه لم يكن دون كثيرين ممّن تغنّى التاريخ بمحامدهم ، وأجزل الثناء عليهم »[٨٥] .

ويمضي ذلك المؤرخ المحدث في استنتاجاته ، فيرى أن معاوية لم يبايع ليزيد بولاية العهد « إلّا مدفوعاً بعاطفته الأبوية »[٨٦] . ولكننا نجد في كلمات معاوية نفسه ما يدلّ على أن دافعه في اتخاذ مثل هذه الخطوة هو النفع للصالح العام وليس لمصلحة خاصة ، فقد ورد على لسانه ، قوله : « اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله ، فبلغه ما أُملت وأُعنه ، وإن كنت إنما حملني حبّ الوالد لولده ، وأنه ليس لما صنعت به أهلاً ، فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك »[٨٧] .

وعلى أية حال ، فلقد اعترف بمزايا خطوة معاوية هذه بعض المؤرخين القدامى مثل ابن العربي وابن خلدون . والأخير كان أقواهما حجة، إذ يقول : « والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس ، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد ــ عليه حينئذ من بني أمية » . ثم يضيف قائلاً : « وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا ، فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك ، وحضور أكابر الصحابة لذلك ، وسكوتهم عنه ، دليل على انتفاء الريب منه ، فليسوا ممن تأخذهم في الحق هوادة ، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق ، فإنهم ــ كلهم ــ أجلّ من ذلك ، وعدالتهم مانعة منه »[٨٩] . ويقول في موضع آخر : « عهد معاويةُ إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أُمية لم يرضَوْا تسليم الأمر إلى من سواهم ، فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه ، مع أن ظنَّهم كان به صالحاً ، ولا يرتابُ أحدٌ في ذلك ، ولا يُظَنُّ بمعاويةَ غيره ، فلم يكن ليعهدَ إليه ، وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق ، حاشا لله لمعاوية من ذلك »[٩٠] .

وقد تابع المؤرخين القدامى في رأيهم هذا ، بعض من الباحثين المحدثين . فقد ناقش الأستاذ محب

---

(٨٥) انظر هامش رقم (١) ، ص١٦٠ من كتاب العواصم من القواصم لابن العربي .
(٨٦) الخربوطلي ، ١٠ ثورات ، ص ص ٩٤ ــ ٩٥ ؛ وانظر : حبيبة ، دولة الأمويين ، ص ص ٥٨ ــ ٥٩ .
(٨٧) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، جـ٣ ، ص٩٢ ؛ العصامي ، سمط النجوم العوالي ، ج٣ ، ص٥٤ ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام ، جـ١ ، ص١٣٧ .
(٨٨) ابن العربي ، العواصم ، ص ص ١٦٠ ــ ١٨١ .
(٨٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ص ٣٧٢ ــ ٣٧٣ ؛ انظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٥ ، ص٣١ .
(٩٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ص٣٦٥ .

الدين الخطيب فكرة ولاية العهد ، وأعرب عن تأييده لما ارتآه معاوية في حصره ولاية العهد في يزيد . فقال بأن معاوية « كان يعلم بينه وبين نفسه أن فتح باب الشورى في انتخاب من يخلفه ، سيحدث في الأمة الإسلامية مجزرة لا ترقأ فيها الدماء إلّا بفناء كل ذي أهلية في قريش لولاية شيء من أمور هذه الأمة ... »[٩١] .

كما أيّد الشيخ محمد الخضري جهود معاوية في هذا الشأن ، فقال : « أما رأينا في ذلك فإن هذا الانحصار [في أسرة معينة] كان أمراً حتماً لابدّ منه لصلاح أمر المسلمين وألفتهم ، ولم شعثهم ، فإنه كلما اتسعت الدائرة التي منها يختار الخليفة ، كثر الذين يرشحون أنفسهم لنيل الخلافة . وإذا انضم إلى ذلك اتساع الدولة الإسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها ، عدم وجود قوم معيَّنين يرجع إليهم الانتخاب . فإن الاختلاف لابدّ واقع .. فلو رضي الناس عن أسرة ، ودانوا لها بالطاعة ، واعترفوا باستحقاق الولاية لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين »[٩٢] .

وليس أفضل من أن نشير إلى ما أورده ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم من رأي لأحد أفاضل الصحابة في هذا الموضوع ، إذ يقول راويه : « دخلنا على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، حين استُخْلِف يزيد بن معاوية ، فقال : أتقولون إن يزيد ليس بخير أمة محمد ، لا أفقه فيها فقهاً ولا أعظمها فيها شرفاً ؟ قلنا : نعم . قال : وأنا أقول ذلك ، ولكن والله لئن تجتمع أمة محمد أحبّ إليّ من أن تفترق ... »[٩٣] .

والخلاصة التي تتضح لنا من خلال تتبع سيرة يزيد الأولى هو أن معاوية قد عمل كل جهده في تثقيفه وتهيئته فكرياً واجتماعياً ليكون في مستوى المسئولية التي يُعد لها .

أما بشأن بيعته فإنه يتبين من خلال دراسة هذه الفكرة أن معاوية قد تبنّى رأياً اجتهادياً . إذ اعتقد أنه باختياره ليزيد ولياً للعهد قد يضمن للأمة الإسلامية وحدتها ، ويحفظ لها استقرارها ، ويجنّبها حدوث أية صراعات على مثل هذا المنصب .

وبشأن صحة بيعة يزيد وأحقيته في الخلافة فإنه من الواجب عليّ أن أبيّن هنا أن الهدف من دراستي لم يكن إصدار حكم شرعي فيما يتعلق بصحة بيعته أو أحقيته في الخلافة . إذ أن ذلك خارجاً عن نطاق هذه الدراسة التاريخية . وإنما هدفي هنا تقديم خلاصة موثقة — حسبما رأيت — عن ما وقع من أحداث ، وما قيل حولها من آراء .

---

(٩١) انظر هامش رقم (١) ، ص١٦١ من كتاب العواصم من القواصم لابن العربي .

(٩٢) محمد الخضري ، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية) ، ص١٢٠ ؛ ويؤيد موقف معاوية كذلك كل من : محمد كرد علي ، خطط الشام ، جـ١ ، ص ص ١٠٩ — ١١٠ ؛ إبراهيم علي شعوط ، أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، ص ص ٢٤٢ — ٢٤٩ ؛ عبدالعزيز سالم ، الدولة العربية ، ص٢٨٧ .

(٩٣) ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ص١٦٨ ؛ العصامي ، سمط النجوم العوالي ، جـ٣ ، ص٥٤ .

الفَصـــل الثانـــي

خلافَته والأحوال السِّياسيَّة العامَّة في عهده (٦٠ ــ ٦٤هـ)

توفي معاوية بن أبي سفيان في شهر رجب من سنة ستّين للهجرة . وتولّى ولده يزيد الخلافة من بعده . فجلس في قصر الخضراء بدمشق وجاءته « أشراف العرب ووفود البلدان وأُمراء الأجناد لتعزيته بأبيه ، وتهنئته بالأمر »[١] . فخطب فيهم وذكَّرهم بوالده ، ثم قال : « وقد وليت الأمر بعده ، ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتغل بطلب علم ، فعلى رسلكم فإن الله لو أراد شيئاً كان ، اذكروا الله واستغفروه »[٢] . ويُضيف المسعودي قائلا « فلما ارتفع من مجلسه أمر لكل واحد منهم بمال على مقداره في نفسه ، ومحلّه في قومه ، وزاد في عطائهم ، ورفع مراتبهم »[٣] .

وبعد ذلك ، كتب يزيد إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، عامله على المدينة ، مع «عبدالله بن عمرو بن إدريس العامري»[٤] يطلب منه أخذ الحسين بن علي ، وعبدالله ابن عمر ، وعبدالله بن الزبير ، رضي الله عنهم ، بالبيعة «أخذاً ليس فيه رَخْصَة حتى يُبايعوا»[٥] . فأرسل الوليد إليهم عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان «وهو غُلام حَدَث»[٦] . لكن الحسين وابن الزبير ، رفضا مبايعة يزيد . وغادر كل منهما المدينة إلى مكة . أما عبدالله بن عمر ، فلم يَرَ رأي سابقيه ، فتركوه وكانوا «لا يتخوّفونه»[٧] .

ونظرا لتهاون الوليد في أخذ البيعة من الحسين وابن الزبير ، لأنه كان، كما تصفه المصادر : «رجلا

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص ٧٥ .

(٢) ابن قتيبة ، عيون الأخبار (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣م) ، جـ١ ، ص ٢٣٩ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص ٧٥ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٧٦ .

(٤) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، جـ ٤ ، ص ٣٣٠ .

(٥) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٢٧ ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ، ص ص ٢١٦ ــ ٢١٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٤ ، ص ١٤ بينما يشير اليعقوبي في روايته : « ... فأحْضِر الحسين بن علي ، وعبدالله بن الزبير فخُذْهما بالبَيعة لي . فإن امتنعا فاضرب أعناقهما ، وابعث لي برؤوسهما» (تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٤١) ؛ وانظر : أحمد إبراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة ، (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٣٨٨هـ) ، ص ٤١٨ . ولكني أرى أنه لا يمكن الأخذ بمثل هذه الأقوال ، لضعف إسنادها .

(٦) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص٢٢٧ «وهو حينئذ غُلام حينَ راهَقَ» ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٤ .

(٧) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ .

يُحبّ العافية»(٨) ، وأنه كان «رجلا رفيقا سَريًّا كريماً»(٩) ، فقد عَزله يزيد عن المدينة، وولاها عمرو بن سعيد ، المعروف بالأشدَق(١٠) . ثم ما لبث أن ضمّ إليه إمارة مكة بعد أن عَزل يحيى بن حكيم بن صفوان بن أمية(١١) عنها . وسوف نتحدث عن مواقف هذه الشخصيات من خلافة يزيد بن معاوية في الفصل التالي من هذا الكتاب .

وفي **بلاد الشام** ، جعل يزيد إقليم قنّسرين وتوابعها جُنداً بذاته ، بعد أن كانت مضمومة إلى جند حمص(١٢) . ولعلّه قد اتخذ هذا الترتيب الإداري لإرضاء رجالات القبائل القيسيّة، الذين كانوا يشكلون أكثرية في هذه الناحية . في حين كانت حمص في أكثريتها يمانية .

أما في العراق ، فقد اشتكى أهل الكوفة ليزيد من تساهل عاملها النعمان بن بشير الأنصاري(١٣) ، مما أدّى إلى اضطراب الأمور في الولاية . فاستجاب يزيد وعزل النعمان وعيّن عبيدالله بن زياد مكانه . وكان عبيدالله معروفاً عند أهل العراق بشدته وحزمه منذ أيام ولايته الأولى أيام خلافة معاوية(١٤) .

وما أن وصل عبيدالله إلى الكوفة ، حتى ندب قوة من الجند بقيادة عبَّاد بن علقمة المازني التميمي لمحاربة فرقة من الخوارج كانت متمركزة في الأهواز بقيادة مرداس (أبي بلال) بن حُدَير التميمي(١٥) . وجرت بين الفريقين معركة قرب مدينة تُوَّج(١٦) ، أسفرت عن مقتل مرداس وكثير من أتباعه ، وكان

---

(٨) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٢٨ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص ٢١٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٥ .

(٩) خليفة بن خياط ، كتاب التاريخ ، ص ٢٣٣ .

(١٠) محمد بن الحَسن بن دُرَيد ، الاشتقاق ، تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة ، ١٩٥٨م) ، ص ٧٩ ؛ ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٥ ، ص ص ٣٢٧ ــ ٣٢٨ ؛ أحمد السباعي ، تاريخ مكة (مكة : نادي مكة الأدبي ، ١٣٩٩هـ) ، جـ ١ ، ص ٩٠

(١١) الأشدق تعني الخطيب المفوَّه ، وليس للفَقَم ولا الفَوَه . وقال الشاعر في عمرو بن سعيد الأشدق :

تَشَادَقَ حتّى مالَ بالقَول شِدْقُهُ ... وكُلُّ خَطيبٍ لا أبالكَ أشْدَقُ

انظر ، الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ١ ، ص ص ١٢١ ــ ١٢٢ ؛ الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ٢٢٧ .

(١٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٣٨ .

(١٣) عن ترجمة حياته ، انظر ، ابن الأثير : أُسد الغابة ، جـ ٥ ، ص ٣٢٦ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ ١٠ ، ص ٤٤٧ . وراجع ، ص ٣٧ من هذا الكتاب .

(١٤) راجع ، الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ٢٧٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٣ ، ص ٢٠٣ ؛ فلهاوزن ، الخوارج والشيعة ، ص ٦٣ ؛ عمر العقيلي : خلافة معاوية ، ص ص ١٦١ ــ ١٦٣ .

(١٥) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٤١٠ ؛ نايف معروف : الخوارج في العصر الأموي ، بيروت ١٩٧٧م ، ص ص ١٢٨ ــ ١٣٠ .

(١٦) تَوَّج : مدينة صغيرة بفارس ، شديدة الحرّ لأنها في غور من الأرض ، وبها نَخْل . وقد فتحت في أيام الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في سنة ١٨ أو ١٩هـ . (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٥٦) .

ذلك في سنة ٦١هـ/٦٨١م(١٧) .

كما تشدَّد عبيدالله كثيراً في مواقفه تجاه الجماعات الموالية لآل علي بن أبي طالب (رض) ، وذلك على إثر سماعه بوجود مسلم بن عقيل في الكوفة ، والتفاف الناس فيها حوله . وسوف نناقش ذلك بالتفصيل في مكان آخر من هذا الكتاب(١٨) .

أما **إقليم خراسان** ، فقد عهد يزيد بولايته إلى سَلْم بن زياد بن أبي سفيان . ووصلها سَلْم ومعه خمسة آلاف من خيرة المحاربين والأشراف من أهل البصرة ، فيهم : المهلب بن ظالم (أبي صفرة) الأزدي(١٩) ، وعبدالله بن خازم السُّلَمي(٢٠) ، وصِلَة بن أُشَيْم العدوي(٢١) ، وغيرهم . وما أنوصلت جموعهم إلى مدينة مَرْو [قاعدة تجمع وانطلاق الجيوش الإسلامية وانطلاقها في خراسان] حتى زحفوا بقيادة سَلْم نحو مدينة خُوَارزم(٢٢) . فصالحه أهلها على مال يؤدّونه(٢٣) . فتركهم سَلْم وعبَر نهر جيحون إلى سمرقند(٢٤) [عاصمة مملكة الصُّغْد] وقضى شتاء عام ٦٢هـ/٦٨٢م فيها . وصالحه أهلها أيضاً . ومن ثمَّ توجَّه نحو مدينة خُجَنْدَة(٢٥) (على نهر سيحون) . ولكنه هُزم وقفل عائداً بقواته إلى مرو . وفي ذلك يقول أعشى همدان(٢٦) . الذي كان مرافقاً لذلك الجيش :

لَيْتَ خَيلي يومَ ٱلخُجَنْدَة لم تُهـ ـــزَمْ وغُودِرْتُ في المكرِّ سَليبَا
تَحْضُرُ الطَّير مَصْرَعي وتَرَوَّحْـ ـــتُ إلى اللهِ بالدماء خَضيبَا

(١٧) راجع ، ابن قتيبة : المعارف ، ص ٤١٠ ؛ اليعقوبي : تاريخ ، جـ٢ ، ص ٣٠٠ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٩٣ . [وهما يذكران أن الواقعة كانت في دَرَابجَرْد التي تبعد عن شيراز خمسين فرسخاً كما ذكر ذلك ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٤٤٦] .

(١٨) انظر الفصل الثالث ، فقرة (أ) من هذا الكتاب .

(١٩) كان من أشجع الناس ، وقد حمىٰ البصرة من الخوارج . ولي خراسان لعبدالملك بن مروان . توفي بمرو الروذ في سنة ٨٣هـ/٧٠٢م . ابن قتيبة : المعارف ، ص ٣٩٩ .

(٢٠) يكنّى أبا صالح . ولي خراسان عشر سنين وقتله أهلها في سنة ٧٢هـ/٦٩٢م . ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ ٥ ، ص ١٩٤ .

(٢١) يكنى أبا الصَّهباء ، قُتل بسجستان سنة ٦٢هـ/٦٨٢م . خليفة بن خياط : الطبقات ، ص ١٩٢ .

(٢٢) انظر ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٢٣) خليفة بن خياط : كتاب التاريخ ، ص ٢٣٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٩٧ .

(٢٤) انظر ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٢٤٦ .

(٢٥) يسميّها ياقوت : جُخادَه . ويقول أنها قرية كبيرة من قرى بخارى في الطريق إلى بيكند (معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ١١١) .

(٢٦) هو عبدالرحمن بن عبدالله القحطاني . نشأ في الكوفة . وتنقل في البلدان . ثم قُتل في الكوفة سنة ٨٣هـ/٧٠٢م لمناصرته عبدالرحمن بن الأشعث بن قيس الكندي في تمرّده على الحجاج بن يوسف الثقفي ، والي العراق آنذاك . راجع ، محمد بن حبيب : أسماء المغتالين من الشعراء ، نوادر المخطوطات ، جـ ٢ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ، ١٩٥٤م ، ص ٢٦٥ ؛ ابن دريد : الاشتقاق ، ص ٤٢٣ ؛ خير الدين الزركلي : الأعلام ، جـ ٤ ، ص ٩٧ .

ونظّم يزيد بن معاوية وضعيَّة **إقليم سِجِسْتَان** من الناحية الإدارية ، فجعله تابعاً لإقليم خراسان . وأصبح سَلْم بن زياد ، بطبيعة الحال ، مسؤولاً عن كليهما . وبعث سَلْم أخاه يزيد بن زياد عاملاً له على إقليم سجستان وذلك في سنة ٦٣هـ/٦٨٣م . ومن هناك ، قاد يزيد حملة ، يشاركه فيها أخوه أبوعبيدة بن زياد ، ووصل حتى كابل ، قاعدة إقليم زَابُلِسْتَان [التي كان يحكمها مَلِك يدعى رَتْبيل] . لكن تلك الحملة أسفرت عن هزيمة المسلمين ، وقُتل الكثيرين منهم بما فيهم قائدهم يزيد بن زياد . وكذلك وقع كثيرهم في الأسر ومنهم أبو عبيدة بن زياد .

وفي محاولة من جانب سَلْم لتأديب رتبيل ، وتخليص أسرى المسلمين ، أرسل قوة أخرى بقيادة طلحة بن عبدالله بن خلف الخزاعي . واستطاع طلحة أن يستعيد جميع أسرى المسلمين بعد أن دفع فدية مقدارها خمسمائة ألف درهم(٢٧) . وعاد أبو عبيدة بعد ذلك إلى مرو ، أما طلحة ، فقد أقام في سجستان ، وظل يشرف على أمور الولاية هناك .

وفي **مصر** : أَقَرَّ يزيد بن معاوية مَسْلَمَةَ بن مَخْلَد الأنصاري «على صَلاتها وخَراجها»(٢٨) . وظل في منصبه حتى توفي بالإسكندرية في سنة ٦٢هـ/٦٨٢م . فعيَّن يزيد بعد ذلك خلفاً له سعيد بن يزيد الفهري (من أهل فلسطين) . ولكن سعيداً هذا لم يستطع أن يجمع أهل مصر عليه . ويعلّق الكندي(٢٩) على ذلك بقوله : « ولم تزل أهل مصر على الشَّنآن له والإعراض عنه ، والتكبّر عليه ، حتى توفي يزيد بن معاوية » في سنة ٦٤هـ/٦٨٤م .

وفي **إفريقية والمغرب** : أعاد يزيد عقبة بن نافع الفهري والياً عليهما ، للمرة الثانية(٣٠) ، في سنة ٦١هـ/٦٨١م . فرحل عقبة من دمشق بصحبة الكثيرين من رجالات القبائل العربية وفيهم خمسة وعشرون صحابياً(٣١) . ويقول ابن عذاري أن عقبة مرَّ على مسلمة بن مخلد الأنصاري في مصر « فاعتذر له من فِعْل أبي المهاجر دينار ــ أثناء عزله الأول سنة ٥٥هـ/٦٧٥م ــ وأقسم له أنه خالَفه فيما صنع ، وأنه كان قد أوصاه بتقوى الله وحسن السيرة ، وأن يحسن عِشرة عقبة ، فقبل عقبة منه ، ومضى حنقاً على أبي المهاجر ، حتى قدم عليه في القيروان ،فأوثقه في الحديد »(٣٢) .

---

(٢٧) خليفة بن خياط : التاريخ ، ص ٢٣٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ٤ ، ص ٩٨ .

(٢٨) محمد بن يوسف الكندي : ولاة مصر ، تحقيق حسين نصار ، بيروت ، دار صادر (د . ت) ، ص ٦٢ .

(٢٩) الكندي : المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٣٠) كانت فترة ولاية عقبة الأولى على افريقية ، أيام معاوية بن أبي سفيان ، في سنة ٥٠ ــ ٥٥هـ/٦٧٠ ــ ٦٧٥م . انظر ، محمد المالكي : رياض النفوس ، جـ١ ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١م ص ٦ ــ ٢٣؛ محمد بن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، جـ١ ، تحقيق ليفي بروفنسال وزميله ، ليدن ١٩٤٨م ، ص ١٩ ــ ٣١ ؛ عمر سليمان العقيلي : خلافة معاوية بن أبي سفيان ، ص ١٢٤ ــ ١٢٧ .

(٣١) المالكي : رياض النفوس ، جـ١ ، ص ٢٢ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢٣ .

(٣٢) ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ١ ، ص ٢٣ .

وقام عقبة بعد ذلك ، بإعادة الحياة السياسية لمدينة القيروان إلى سابق مجدها ، « فجدَّد بناءها، ونقل الناس إليها ، فعمرت وعظم شأنها »[٣٣] .

ثم بدأ نشاطه في استكمال خطة الفتوحات في الشمال الافريقي ، فخلَّف على القيروان زهير بن قيس البلوي ، وكان رجلا صالحاً[٣٤] ، ثم بدأ زحفه ، بمرافقة أبي المهاجر دينار وكُسيْلَةَ ابن لَمْزَم الأورَبي ، صديق أبي المهاجر[٣٥] ، ولعلَّه بذلك يريد أن يراقبهما خشية أن يتمردا عليه . وتوجه بقواته نحو باغاية[٣٦] في شمال جبال الأوراس . فقاومه أهلها من البربر والبيزنطيين لكنه هزمهم . وتوجَّه بعد ذلك إلى منطقة الزاب فدخل مدينة أذنة[٣٧] ، وهي أعظم مدنها ، ودحر حاميتها التي كانت تتكون من البيزنطيين ومن جماعات من مختلف قبائل البربر ، مثل : لواته ، وزَناتة ، وهوارة ، ومَطماطة ، وزَواغة[٣٨] . كما هزمهم قرب مدينة تاهرت[٣٩] . ثم سار حتى وصل مدينة طنجة ، وهي آخر معقل للبيزنطيين على ساحل المحيط الأطلسي ؛ وهناك ، وجّه إليه يليان (حاكم المدينة البيزنطي) رسالةً مستعطفاً ومستلطفاً ، وبعث له هدية عظيمة ، وسأله المسالمة ، وأنه مستعد أن ينزل على حكمه ، فقبل عقبة منه ، واجتمع به[٤٠] . ولعلَّ يليان لم يكن على وفاق مع جماعته من البيزنطيين ، فخرج عليهم وهادن المسلمين ، الذين أقروه على ما كان عليه . وتروي المصادر التاريخية أن عقبة قد سأل يليان عن بلاد الأندلس ، وأنه يريد التوجّه إليها ، لكن يليان عظَّم عليه أمرها . ولكنه نصحه ، وشجعه على أن يتوجَّه لفتح منطقة السوس الأقصى ، كي لا يترك جماعات البربر وراءه ، فيتعرض إلى انتفاضاتهم المتكررة عليه ، وارتدادهم عنه[٤١] .

وأخذ عقبة بنصيحة يليان ، فتوجه ، ومعه حوالي خمسة آلاف مقاتل ، نحو مراكز قبائل البربر (مصمودة ، وصنهاجة) في مناطق السوس الأدنى (تامَسْنا) والسوس الأقصى ، فدخل أُغْمَات[٤٢] . ثم توجه نحو الساحل حتى وصل قريباً من أغادير ، المطلة على المحيط الأطلسي . وهناك يقال أنه أقحم فرسه البحر المحيط حتى بلغ الماء بطن فرسه ، وقال قولته المشهورة : « يا رب لولا هذا البحر لمضيت في

---

(٣٣) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ، ص ٢٢ .

(٣٤) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ١ ، ص ٢٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ٤ ، ص ١٠٥ .

(٣٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ١٩٧ ؛ ابن الأثير : الكامل جـ٤ ، ص ١٠٧ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢١ ــ ٣ .

(٣٦) مدينة قريبة من قسنطينة . ياقوت : معجم البلدان : جـ ١ ، ص ٣٢٥ .

(٣٧) ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص ١٤٠ ؛ وانظر : المالكي : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٣ ؛ الدباغ : معالم الإيمان ، جـ ١ ، ص ٤٤ .

(٣٨) ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ١ ، ص ٢٥ .

(٣٩) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٧ . وانظر ، المالكي : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٣ ــ ٤ .

(٤٠) ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢٦ ، وانظر ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٠٦ .

(٤١) ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٢٦ .

(٤٢) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ .

البلاد مجاهداً في سبيلك »[٤٣] .

وبعد أن وصل عقبة إلى هذا العمق من بلاد المغرب ، واطمأن على ما أنجزه ، ترك في تلك البلاد بعض أصحابه يعلمون البربر القرآن والإسلام ، منهم شاكر وغيره[٤٤] ، ومن ثم ، أعدَّ العدَّة للعودة إلى القيروان ثانية . فأخذ في هذه المرَّة الطريق الداخلي وترك طريق الساحل الذي كان يسلكه من قبل ، ظناً منه أن البربر قد ضعفت مقاومتهم ، وأنهم لن يتعرضوا له .

وتمكن من عبور جميع أراضي المغرب الأقصى ، واتجه منها نحو المغرب الأوسط ، وقطع فيها شوطاً بعيداً حتى إذا ما وصل إلى بلدة تهوذه بقرب مدينة بسكرة اصطدم مع قوة كبيرة من البربر الذين تجمعوا بقيادة كسَيْلة بن لمزم الأوْرَبي ، وكان قد هرب من مخيم عقبة وحرض الناس عليه ، وتقاتل الجمعان قتالاً شديداً ، وتغلَّب كُسَيلة على عقبة وجماعته من المسلمين ، « فكثرت فيهم الجراح ، واستشهد عقبة وكثير ممن معه ، وأسر الذين ظلوا على قيد الحياة ، ففداهم صاحب قَفْصَة ، وبعث بهم إلى زهير بن قيس البلوي في القيروان »[٤٥] .

وقد كان لهزيمة عقبة في موقعة تهوذة (٦٣هـ/٦٨٣م) آثار خطيرة من الناحية السياسية . إذ فقدَ المسلمون السيطرة على ما كان تحت أيديهم من افريقية والمغرب ، حيث استغل كُسَيلة انتصاره على عقبة فزحف بجموعه تجاه القيروان ، ودخلها (محرم ٦٤هـ/٦٨٤م) . ولما لم يكن لمن فيها من المسلمين قدرة على قتاله لقلة من معهم فقد طلب أهلها المسلمون الأمان من كُسَيلة فأمَّنهم . وأقام كُسَيْلة أميراً على القيروان وعلى من بقي من المسلمين تحت يده[٤٦] .

ورحل فريق آخر من المسلمين عن القيروان ، وعسكر في برقة[٤٧] . وكانوا بقيادة زهير بن قيس البلوي ، في حين رجعت أعداد كبيرة من المسلمين إلى مصر مع حَنَش بن عبدالله الصَّنعاني[٤٨] .

ولما لم ير المسلمون أي أمل في استعادة نفوذهم السياسي في تلك الفترة المضطربة (بعد وفاة يزيد وابنه معاوية وتولِّي مروان بن الحكم الخلافة وما واجه من اضطرابات) فقد ظلوا يعسكرون في برقة حتى عهد الخليفة عبدالملك بن مروان . والذي أرسل في سنة ٦٩هـ/٦٨٩م بإمدادات عسكرية إلى زهير في برقة .

---

(٤٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٠٦ .
(٤٤) ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٧ ؛ شكري فيصل : المجتمعات الإسلامية ، ص ١٧٧ .
(٤٥) انظر ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ١٩٨ ــ ١٩٩ ؛ المالكي : رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٥ ؛ ابن عذاري : البيان ، جـ ١ ، ص ٢٩ .
(٤٦) انظر ، الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية ص ٤٦ ؛ المالكي : رياض ، جـ ١ ، ص ٢٨ ؛ الدباغ : معالم الإيمان ، جـ ١ ، ص ٥٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ .
(٤٧) الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية ، ص ٤٨ ــ ٥٠ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب جـ ١ ، ص ٣١ ؛ معالم الإيمان ، جـ ١ ، ص ٥٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ .
(٤٨) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ، ص ١٠٨ .

فماهي إلّا فترة قصيرة حتى استطاع زهير أن يقضي على كسيلة . ودخل المسلمون القيروان ثانية ، وعادت لهم هيبتهم في أرجاء افريقية والمغرب(٤٩) .

أما عن **العلاقات الإسلامية البيزنطية** في فترة خلافة يزيد بن معاوية ، فإن المصادر التاريخية لا تتحدث عن شيء ذي قيمة تاريخية يتعلّق بها . فقد ظلّت الحدود البرية والشواطيء البحرية هادئة . خاصة بعد إنسحاب القوات الإسلامية من الأراضي البيزنطية ، (بعد فشل حصارها لمدينة القسطنطينية في أواخر عهد معاوية ٦٠هـ/٦٨٠م) . ومع ذلك نجد أن يزيد بن معاوية قد جرَّد صائفة بقيادة مالك بن عبدالله الخثعمي وصلت حتى قونية وذلك في سنة ٦١هـ(٥٠) (٦٨١م) . وعلى أية حال ، فلعلَّ للاضطرابات الداخلية أثراً كبيراً في هدوء الوضع وقلّة غارات المسلمين الموجهة ضد البيزنطيين ، لاسيما أن يزيد كان في حاجة ماسة لوجود قوات من أهل الشام إلى جانبه لمناصرته في مناهضة الحركات التي حدثت داخل الدولة ، كما سنرى .

أما **الإنجازات الحضارية** التي تمت في عهد يزيد بن معاوية ، فإن الباحث يجد صعوبة بالغة في التعرف عليها وذلك لندرة المعلومات عنها في المصادر التاريخية . وكل ما استطعت معرفته من خلال الروايات المثبتة أن يزيد قد حفر نهراً في « لِحْف جبل قاسيُون بدمشق »(٥١) وأجرى فرعاً من نهر بَرَدَى فيه فسمّي فيما بعد بنهر يزيد . ويقول أحد الباحثين المحدثين : « وكان هذا النهر يسقي ما لا يصل إليه نهر بَرَدَى »(٥٢) . كما يتحدث بعضهم عن مزايا ذلك النهر بقولهم : « وقد ساعد هذا النهر على امتداد الخضرة والعمران إلى أعالي سفوح جبل قاسيون ، المطل على المدينة . فضلاً عن إحياء عدد من القرى في الشمال من دمشق وإرواء الجواسق والمنازل التي أقيمت على ضفافه »(٥٣) . ولا يزال هذا النهر يروي أرض الصالحية بدمشق إلى اليوم(٥٤) .

ومن ناحية أخرى ، فهناك روايات ذكرها الأزرقي تفيد أن يزيد بن معاوية كان قد كَسَا الكعبة بالديباج الخسرواني . ويضيف الأزرقي قائلاً : « كان أول من أخدم الكعبة يزيد بن معاوية ، وهم الذين

---

(٤٩) ابن عبدالحكم : تاريخ مصر وافريقية ، ص ٢٠٠ ؛ المالكي : رياض النفوس جـ١ ، ص ٢٩ ــ ٣٠ ؛ الرقيق : تاريخ افريقية ، ص ص ٤٧ ــ ٥٢ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب جـ١ ، ص ص ٣١ ــ ٣ .

(٥٠) خليفة بن خياط : تاريخ ، ص ٢٣٥ وانظر ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٤١٥ .

(٥١) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٣٧٨ . ويقول ابن طولون : «وفي أيامه وسّع النهر المسمّى بيزيد ، في ذيل جبل قاسيون ، وكان جدولاً صغيراً فوسّعه [فجرى فيه] أضعاف ما كان يجري فيه من الماء . [قيد الشريد ، ص ص ٥٠ ــ ٥١] .

(٥٢) جبرائيل جبور : الملوك الشعراء ، ص ٣٣ .

(٥٣) عبدالقادر الريحاوي : مدينة دمشق ، (تراثها ومعالمها التاريخية) ، دمشق ١٩٦٩م ، ص ٥٨ ؛ بشير زهدي : دمشق [وأهميتها العمرانية والمعمارية عبر العصور التاريخية] ، دمشق ، ١٩٨٢م ، ص ١٧ .

(٥٤) رفيق المهايني : تاريخ الدولة الأموية والعباسية ، دمشق ، ١٩٤٧م ، ص ١٧ .

يسترون البيت »[٥٥] . [ولعل المقصود أنه عيَّن الخَدَم الذين يتولَّون وضع الكسوة ـــ أي يسترون الكعبة] .

وعلى أية حال ، فإن قلة المعلومات التاريخية حول الإنجازات الحضارية في فترة خلافة يزيد قد لا تعني بالضرورة أن الرجل لم يعمل شيئاً يذكر له . ولكن ربما كان لسرعة تتابع الأحداث السياسية في عهده أثر كبير في إغفال المؤرخين لهذه الجوانب من سيرته . فأصبح إهمالهم لها يشكل عبئاً كبيراً على الباحث في الجوانب الحضارية لفترة خلافة يزيد بن معاوية .

---

(٥٥) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

الفصـــل الثالـــث

حركـات المعارضـة في عهده

(١) موقف أهل الكوفة ووقعة كربَلاء (٦١هـ/٦٨٠م) :

سبق وذكرنا أن الحسين بن علي (رض) قد بايع معاوية ورفض جميع التوسلات لمبايعته هو نفسه بالخلافة . أما في عهد يزيد بن معاوية ، فقد رفض الحسين إعطاء بيعته ليزيد عندما طلب ذلك منه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، عامل يزيد على المدينة[١] ، وغادر الحسين إلى مكة [في بَنيه وإخوته (عدا محمد بن الحنفية) وجلَّ أهل بيته][٢] دون أن يعترضه الوليد في شيء .

وما أن حلَّ الحسين بمكة حتى توالت عليه الرسائل من زعماء أهل الكوفة أمثال : سليمان بن صُرَد الخزاعي[٣] ، والمسيَّب بن نَجبة الفزاري[٤] ، ورفاعة بن شداد البَجَلي[٥] ، يَستحثّونه القدوم عليهم[٦] . وكان مما جاء في إحدى رسائلهم إليه ، التي حملها عبيدالله بن سبيع الهَمْداني ، وعبدالله بن ودَّاك السُلَمي « أنّا قد حَبَسنا أنفسنا على بيعتك ، ونحن نموت دونك ، ولسنا نحضر جمعة ولا جماعة بسببك . ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه (يعنون الوالي) من الكوفة ، وألحقناه بالشام »[٧] .ولكننا لو دققنا في الروايات التي تتحدث عن حال أهل الكوفة بعد ذلك لوجدنا أن الطبري يشير إلى أن عبيدالله بن زياد عندما وصل الكوفة ونادى : الصلاة جامعة ، اجتمع الناس فخطبهم وحذَّرهم[٨] ، فتثبطت

---

(١) راجع ، ص ١٨ هامش رقم ٤٨ .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم (١) ، ص ٣٠٣ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٢٠؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٢ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٦ ، ص ٢٥ ، «وكان فيمن كتب إلى الحسين يسأله القدوم عليهم الكوفة ، فلما قدم الحسين الكوفة اعتزله فلم يكن معه» ؛ جـ ٤ ، ص ٢٩٢» وكان كثير الشَّك والوقوف» .

(٤) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٦ ، ص ٢١٦ ؛ ابن حجْر ، تهذيب التهذيب ، جـ ١٠ ص ١٥٤ .

(٥) ابن خياط ، الطبقات ، ص ١٥٢ ؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٨٩ .

(٦) يُقدم بن الطُقطَقا رواية مغايرة لإجماع المؤرخين ، إذ يقول : «فلما استقر الحسين بمكة ، اتصل بأهل الكوفة تأبية من بيعة يزيد» . الفخري ، ص ٨٥ . ولكن أعتقد أن مثل هذه الرواية لا يمكن الركون لصحتها لأن المعروف أن أهل الكوفة هم الذين بدأوا بمراسلة الحسين وحثه على المجيء إلى الكوفة .

(٧) انظر : كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ ٢ ، ص ٤ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ص ١٥٧ ــ ١٥٨ ؛ الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٢٢٨ ــ ٢٣٥ ؛ ابن حجر ، الإصابة : جـ ١ ، ص ٣٣٣ ؛ حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام : جـ ١ ، ص ٣٩٨ ؛ محمد الطيِّب النجار ، الدولة الأموية في الشرق ص ٨١ .

(٨) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٤٢ . وانظر الفقرة الخاصة بدخول عبيدالله بن زياد مدينة الكوفة وخطبته في الاجتماع العام الذي دعا إليه في مسجد الكوفة . وراجع المصادر والمراجع المذكورة في الملاحظتين (٣٠) ، (٣١) .

عزائمهم .

وتوالت رسائل أهل الكوفة على الحسين حتى قيل إنه وصله منها « ما ملأ منه خُرْجَين »[٩] لكنّه لم ينخدع بوعودهم . ورأى قبل أن يقدم على أية خطوة أن يرسل إليهم ابن عمّه مُسلم بن عَقيل بن أبي طالب[١٠] ، يستطلع خبر أهلها ، ويعلمه بحال هذه الجماعة ، ويتأكد له من أمرهم . وكان مما أوصاه به : « سر إلى الكوفة ، فانظر ما كتبوا به إليّ ، فإن كان حقّا خرجنا إليهم »[١١] . كما كتب إلى الذين راسلوه من أهل الكوفة جميعا «كتاباً واحداً»[١٢] جاء فيه ، « قد فهمت كل الذي كتبتم ، وقد بعثت إليكم بأخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي مُسلم بن عقيل . وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إليّ أنه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسُلُكم أقدم إليكم وشيكا إن شاء الله »[١٣] .

وقدم مسلم بن عقيل الكوفة لخمس خلون من شوال سنة ٦٠هـ/٦٨٠م ، وعليها النعمان بن بشير الأنصاري « وكان حليماً ناسكاً يحبّ العافية »[١٤] . و لعلّ في هذا ما شجّع مسلماً وجماعته أن يتحركوا بحريّة ولكن في سريّة تامة ، واحتياط شديد . فكان يقيم مرة في منزل المختار بن أبي عبيد الثقفي ، ومرة في منزل شُرَيح بن هانىء الحارثي ، وأخرى في منزل هانىء بن عروة المُرَادي وذلك حتى لا يثير الشك والانتباه . فكانت الجماعات المناصرة للحسين تأتيه وتبايعه على « الدّعوة إلى كتاب الله وسنّة رسوله ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، وإعطاء المحرومين ، وقسمة الفيء بين المسلمين بالسَّوية ، وردّ المظالم إلى أهلها ، ونصرة أهل البيت ، والمسالمة لمن سالموا ، والحرب لمن حاربوا من دون ردّ لقولهم »[١٥] .

---

(٩) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٢٩ .

(١٠) انظر : أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيّين ، ص ٨٠ .

(١١) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٢٨٨ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، جـ٣ ، ص ٦٤ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيّين ، ص ٩٦ ؛ ابن حَجْر : التهذيب ، جـ ٢ ، ص ٣٤٩ ؛ طه حسين ، علي وبَنوه (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠م) ، ص ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨ . أما ما ذكره عمر فَرّوخ حول هذه المسألة فإنني أرى أنه بعيد كل البعد عن الصُّحة . فهو يقول إن أهل الكوفة «كاتبوا الحسين بن علي حتى يقدم عليهم إلى الكوفة فيحاربوا بني أمية تحت لوائه . وكان الحسين عاقلا فنظر في التاريخ القريب فوجد أن الكوفيّين قد خذلوا أباه عليّا ثم أخاه الحسن من بعد ، فما يمنعهم من أن يخذلوه هو ؟ فأبى السَّير إليهم . حينئذ جاء أربعون ألفا من الكوفيّين إليه في مكة بسلاحهم يُعلنون استعدادهم لخوض المعركة إلى جانبه . فحسُن ظَنّ الحسين بهم ، ووعدهم بالمسير معهم» . [تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨١م) ، ص ١٢٣] .

(١٢) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٣٠ .

(١٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٢١ ؛ وانظر : الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٣٠ .

(١٤) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٣٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٢٢ .

(١٥) قارن بنود هذه البيعة ببيعة أهل الكوفة إلى زيد بن علي (زين العابدين) بن الحسين بن علي (رضي الله عنه) في عهد هشام بن عبدالملك سنة ١٢٢هـ . (البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ٢٣٨ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٦٨٧) .

بابن (بنت) رسول الله ، قدمت خير مقدم »[٢٩] . وما أن وصل دار الإمارة ، وحَسَر اللّثام عن وجهه ، حتى عَرفه الناس ، فأصابهم الخوف والاضطراب .

ودعا ابن زياد إلى اجتماع عام في مسجد الكوفة عقب صلاة الظهر . وخطب فيهم خطبة تحذيرية عرفهم فيها على سياسته التي سيتبعها فيهم ، وهي تنطوي على الليونة أولاً ، فإذا لم تنفع ، فلا بد من اللجوء إلى الحزم والشدة . فقال لهم : «فأنا ، لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البَرّ ، وسوطي وسيفي على من ترك أمري ، وخالف عهدي ، فليُبق امرؤ على نفسه . الصدق ينبيء عنك لا الوعيد » . ثم طلب من العُرفاء أن « اكتبوا إليّ الغُرباء ، ومن فيكم من طِلْبَة أمير المؤمنين ، ومن فيكم من الحروريّة وأهل الرِّيَب الذين رأيهم الخلاف والشقاق . فمن كتبهم لنا فبريء ، ومن لم يكتب لنا أحدا فيضمَنُ لنا ما في عرافته أن لا يخالفنا منهم مخالفٌ ، ولا يبغي علينا منهم باغ . فمن لم يفعل بَرئَت منه الذمة ، وحلال لنا ماله وسفك دمه . وأيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صُلِب على باب داره ، وأُلغيت تلك العرافة من العطاء ، وسُيِّر إلى موضع بعُمَان الزّارَه »[٣٠] . وعلى أية حال ، فإن ابن زياد لم يأت هنا بأي جديد . فسياسته المتشددة ، ومواقفه الحازمة ، معروفة وواضحة لكل من سَكَن ذلك الإقليم منذ عهد معاوية بن أبي سفيان[٣١] .

وبرغم تحذيرات ابن زياد هذه ، فإن أيا من العُرَفاء أو من أهل الكوفة لم يكن ليدلّه على مكان مُسلم بن عقيل فيها . ومع ذلك ، فلم يلجأ ابن زياد لانتزاع اعترافات الناس بالقوة ــ كما هدّدهم في خطبته ــ لأنه كان يعرف أن ذلك سيزيد من تعاطف الناس مع مسلم . ولكنه ما لبث أن اهتدى إلى خطة تنمّ عن ذكاء واسع . فقد أحضر أحد مواليه ويسمى مَعْقلا ، وأعطاه ثلاثة آلاف درهم ، وأمره أن يتزيّا بزيّ تجار أهل الشام وأن يحاول البحث عن أحدٍ يعرف مكان مسلم . فعمل المولى ذلك. وصادف أن تقابل في مسجد الكوفة مع مسلم بن عَوْسَجَة الأسدي ، وكان أحد الذين يدعون لبيعة الحسين بن علي . فقال له معقل « يا عبدالله ، إني امرؤ من أهل الشام مولى لذي الكلاع ، أنعم الله عليَّ بحبّ هذا البيت ، وحبّ من أحبَّهم . فهذه ثلاثة آلاف درهم أردت بها لقاء رجل منهم بلغني أنه قدم الكوفة يُبايع لابن بنت رسول الله ﷺ ، وكنت أريد لقاءه فلم أجد أحداً يدلّني عليه ، ولا يعرف مكانه . فإني لجالس آنفاً في المسجد إذ سمعت نفراً من المسلمين يقولون هذا رجل له علمٌ بأهل هذا البيت ، وإني أتيتك لتقبض هذا المال ، وتدخلني على صاحبك فأبايعه ، وإن شئت أخذت بيعتي له قبل

---

(٢٩) الدّينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٣١ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيّين ، ص ٩٦ .

(٣٠) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ٢٠٥ «الزّارة : مِنَ البَحرين» ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٤٢ ؛ يوليوس فِلهاوزن ، الخوارج والشيعة ؛ ص ص ١٢١ ــ ١٢٢ ؛ محمد الخضري ، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ١٢٦ .

(٣١) انظر : البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ص ١٧٨ ــ ١٨٦ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ١٨٥ ــ ١٨٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ، ص ص ٥١٦ ــ ٥١٩ ؛ جـ ٤ ، ص ص ٩٤ ــ ٩٥ .

لقائه »(٣٢) .

فشكره مسلم بن عَوسَجَة ، ثم ما لبث أن دلَّه على مكان مسلم بن عقيل في منزل هانىء بن عُروة المُرادي ، شيخ آل مراد وزعيمها في الكوفة(٣٣) . فدفع معقل ما معه من أموال إلى أبي ثُمَامة الصَّائدي (الذي كان يقبض أموالهم وما يعين به بعضهم بعضا ، يشتري لهم السلاح ، وكان به بصيرا . وكان من فرسان العرب)(٣٤) . وأخذ معقل يتردّد على منزل هانىء ، ويستمع ما يدور من أحاديث بين المجتمعين ، ثم ينقلها إلى عبيدالله بن زياد(٣٥) ، الذي كان يراقب ويدرس الموقف عقب كل تقرير .

وما أن أحس ابن زياد بوصول حركة مسلم بن عقيل مرحلة الخطر ، حتى دعا هانىء بن عروة إلى دار الإمارة . وهناك سأله ابن زياد عن مسلم ، فتجاهل معرفته بمكان وجوده ، فواجهه بمعقل . وعندها لم يستطع هانىء الاستمرار في الإنكار ، وقال « أصلح الله الأمير ، والله ما دعوته إلى منزلي ولكنه جاء فطرح نفسه عليّ . قال : ائتني به . قال : والله لو كان تحت قدمَيّ ما رفعتهما عنه »(٣٦) . وعند ذلك عاتبه ابن زياد وذكَّره بمواقفه ومواقف والده السَّخيَّة تجاهه . ولم ينكر هانيء ذلك(٣٧) . لكنه نصحه أن يخرج من الكوفة لأن الأمور فيها لا تسير لصالحه ، وبيَّن له أنه قد « جاء حقّ من هو أحقّ من حَقّك وحقّ صاحبك »(٣٨) . ولكن ابن زياد لم يُعجب بكلام هانيء ، فضَرَبَه ثم حَبَسه في بيت إلى جانب مجلسه ، ليس لخوفه من جماعته ، الذين أحاطوا بالقصر ، فهم أخذوا يصيحون « لم نخلع طاعة ، ولم نفارق جماعة »(٣٩) . إنما لأن ابن زياد كان يخطط لاستدراج مسلم بن عقيل للإعلان عن حركته ثم لمعرفة مدى قوّته ليقدم على خطوته التالية والأمور واضحة أمامه .

وبالفعل ، حدث ما توقعه ابن زياد تماماً . إذ ما أن سَمع مسلم بما حَلّ بهانىء بن عُروة حتى شَعَر أن خطوة ابن زياد الثانية ستكون موجَّهة إليه . فاستعرض من اجتمع إليه من أهل الكوفة ، وكانوا في أربعة آلاف رجل . فعقد لعبيدالله بن عمرو بن عزيز الكندي على رُبع كندة وربيعة ، وعقد لمسلم بن عَوسَجَة الأسدي على رُبع مَذحج وأسد ، وعقد لأبي ثُمَامة الصَّائدي على ربع تميم وهَمْدان، وعقد

---

(٣٢) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٢٤٦ ـــ ٢٤٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٢٥ ؛ ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، جـ ٢ ، ص ٣٥٠ .

(٣٣) انظر : الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٣٥ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٦٩ .

(٣٤) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٣٥) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٣٦ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيّين ، ص ص ٩٧ ـــ ٩٩ .

(٣٦) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٢٢٩ ـــ ٢٣٠ ، ٢٥١ ـــ ٢٥٢ ؛ ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، جـ ٢ ، ص ٣٥٠ .

(٣٧) ابن عبد ربّه ، العِقد الفَريد ، جـ ٥ ، ص ١٢٠ ؛ أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ١٥٢ .

(٣٨) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٦٧ .

(٣٩) انظر : الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣٠ .

لعباس بن جَعْدَة الجَدَلي على رُبع المدينة[٤٠] ، (أي قريش والأنصار) . وتوجّه بجموعه نحو قصر ابن زياد ، فأحاطوا به . لكن ابن زياد «تحصَّن في القصر مع من حَضَر مجلسه في ذلك اليوم من أشراف أهل الكوفة والأعوان والشرَط ، وكانوا مائتي رجل[٤١]» . وكان قد حَبَسَ أشراف أهل الكوفة عنده « استئناساً بهم لقلّة من معه »[٤٢] .

وطلب ابن زياد ممّن معه أن يثبطوا الناس « فقاموا على سور القصر يرمون القوم بالمدر والنّشاب ، ويمنعونهم من الدّنو من القصر ، فلم يزالوا بذلك حتى أمسوا »[٤٣] . ثم خطب في أشراف أهل الكوفة ، وحذرهم مغبّة اشتراك رجالاتهم في حركة عصيان مسلّح ضد السلطة المركزية . وهدّدهم بقطع عطائهم ، وبأنه سيستعين عليه بقوات من أهل الشام إذا ما استعصى عليه أمرهم[٤٤] .

وما أن سمع أشراف أهل الكوفة تحذيراته ، حتى أخذ كل منهم يطلّ على جماعته فيثبطهم . ويروي الدينوري أن الرجل من أهل الكوفة « يأتي ابنه ، وأخاه ، وابن عمّه فيقول : انصرف ، فإن الناس يكفونك ، وتجيء المرأة إلى ابنها وزوجها فتتعلّق به حتى يَرجع »[٤٥] . فأخذت الناس تجلوا عن مسلم واحداً تلو الآخر حتى بقي في مائة رجل[٤٦] ثم في ثلاثين[٤٧] ثم في ثلاثة رجال[٤٨] . إلى أن انتهى به الأمر أن أخذ يسير في شوارع الكوفة وحيدا « لا يجد أحدا يدلّه على الطريق ولا يدلّه على منزل ، ولا يواسيه بنفسه إن عرض له عدو »[٤٩] . وليس هذا فحسب ، بل إنهم تجرأوا عليه فاعتلوا أسطح بيوتهم ليرموه بالحجارة[٥٠] .

وبعد أن يئس مسلم من أنصاره ، لجأ إلى ضاحية كندة ، ودخل دار امرأة تسمّى طَوْعَة[٥١] ،

---

(٤٠) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيّين ، ص ١٠٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣٠ ؛ أما ابن حجر في كتابه تهذيب التهذيب ، جـ ٢ ، ص ٣٥١ ، فيقول : «فاجتمع إليه أربعون ألفاً» .

(٤١) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٣٨ .

(٤٢) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣١ .

(٤٣) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٣٨ : «المَدْرِيَّة : رماحٌ كانت تُركَّب فيها القُرون المُحَدَّدة مكان الأسنّة» ؛ اسماعيل الجوهري ، الصحاح ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار (بيروت ، ١٤٠٢هـ) ، جـ ٢ ، ص ٨١٢ .

(٤٤) أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ١٠٠ .

(٤٥) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٣٩ ؛ وانظر : مقاتل الطالبيين ، ص ١٠١ .

(٤٦) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ .

(٤٧) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ص ٣٠ ـــ ٣١ .

(٤٨) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٦٧ .

(٤٩) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٨ ؛ وانظر : طه حسين ، علي وبنوه ، ص ٢٣٨ .

(٥٠) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٦٢ ؛ ابن عبد ربّه ، العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١١٩ .

(٥١) يرى الدينوري أنها «كانت ممّن خفّ مع مُسلم ، فآوته ، وأدخلته بيتها» ، الأخبار الطوال ، ص ٢٣٩ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيّين ، ص ١٠٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣١ .

فآوته . لكن ابنها ، ويسمى بلال بن أسيد الحَضْرَمي[٥٢] ، دلّهم على مكانه ، فأرسل ابن زياد محمد بن الأشعث بن قيس الكندي ، زعيم قبيلة كندة في الكوفة ، إلى ضاحيته ومعه حوالي ستين أو سبعين رجلاً من قيس يتزعمهم عمرو بن عبيدالله السُّلَمي[٥٣] . وكَرِهَ ابن زياد « أن يبعث إليه غير قريشيّ خوفاً من العصبيّة أن تقع »[٥٤] . فقبض محمد على مسلم وسلّمه لابن زياد في دار الإمارة .

وبعد أن تناقش ابن زياد مع مسلم بن عقيل ، أمَرَ بقتله ، فعند ذلك التفت مسلم إلى عمر بن سعد بن أبي وقّاص الزُّهْري ، فأسرَّ إليه بأن الحسين بن علي قادم إلى الكوفة . وما أن عرف ابن زياد بما أُخبر به عمر ، حتى قال له « أما والله ــ إذا دُلِلْت عليه ــ لا يُقاتله أحدٌ غيرك »[٥٥] . ثم قَتَل ابن زياد مسلم بن عقيل . فكان بذلك « أول قتيل من بني هاشم في عهد بني أُمية »[٥٦] . ثم أتبعه بهانيء بن عروة المرادي ، الذي كان سجينا عنده من قبل .

وفي الوقت الذي قُتل فيه مسلم بن عقيل كان الحسين بن علي (رض) قد همّ بمغادرة مكة متوجها نحو الكوفة (ذو الحجة ٦٠هـ/ايلول ٦٨٠م) . وكان ذلك بناء على الرسائل المشجّعة التي كانت تتوالى عليه من مسلم حاملة إليه أنباء تزايد أعداد المبايعين له من أهل الكوفة . إذ وصلت في إحدى الروايات « ثلاثين ألفاً »[٥٧] ، وفي رواية أخرى « ثمانية عشر ألفاً »[٥٨] ، ولا شك أن مسلم بن عقيل قد « اغتر بما شاهد وأرسل إلى مكة يستحثّ الحسين في القدوم »[٥٩] . وكان مما جاء في آخر رسالة بعث بها إلى الحسين « أما بعد ، فإن الرّائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فعجّل الإقبال حين يأتيك كتابي ، فإن الناس كلهم معك ، ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى ، والسلام »[٦٠] .

---

(٥٢) أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيّين ، ص ١٠٢ ؛ ابن حجر ، الإصابة ، جـ ١ ، ص ٣٣٤ ؛ تهذيب التهذيب ، جـ ٢ ، ص ٣٥١ .

(٥٣) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٦١ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ١٠٤ .

(٥٤) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٤٠ .

(٥٥) كتاب الإمامة والسياسة (المنسوب لابن قتيبة) ، جـ ٢ ، ص ٥؛ ابن عبد ربّه ، العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٢٠ ؛ أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ١٥٣ .

(٥٦) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٧٠ .

(٥٧) كتاب الإمامة والسياسة (المنسوب لابن قتيبة) ، جـ ٢ ، ص ٤ .

(٥٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣٣ ؛ ويرى ابن حَجْر في تهذيب التهذيب ، جـ ٢ ، ص ٣٤٩ : «اثنا عشر ألفاً» .

(٥٩) السباعي ، تاريخ مكة ، جـ ١ ، ص ٩٠ .

(٦٠) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٤٣ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٦٤ . ولعلّ فيما ورد في رسالة مُسلم هذه ، يتضمن ردّا كافياً على عدم صحة ما توصّل إليه عبدالعزيز سالم . فهو يقول : «أما الحسين فلم تكن قد وصلته أخبار مسلم ، فاستبطأها ، وعزم على السّير نحو الكوفة» . (تاريخ الدولة العربية ، ص ٣٣٠) .

الخبر ، وأفظعه قتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة لكنه مضى في طريقه إلى الكوفة(٧٣) .

وما أن وصل القادسية(٧٤) ، حتى لقيته خيل عبيدالله بن زياد وعليها الحرّ بن يزيد التميمي اليربوعي ، وكانوا في ألف فارس(٧٥) ، أرسلهم عبيدالله لمنع الحسين من دخول الكوفة ، بالطرق السلمية . فكان أن اجتمع الحرّ مع الحسين ، وبيَّن له صعوبة الموقف في الكوفة(٧٦) . فهمّ الحسين أن يرجع من حيث أتى . لكن الحرّ وجماعته منعوه من ذلك ، وقالوا للحسين : « قد أُمرنا إذا نحن لقيناك ألّا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيدالله بن زياد » . فقال له الحسين : « الموت أدنى إليك من ذلك » . ولما لم يكن الحرّ راغباً في قتال الحسين فقد اقترح عليه أن يسلك طريقاً لا يدخله الكوفة ولا يوصله المدينة وأن يكتب إلى يزيد إذا رغب في ذلك . وأن ينتظر حتى يكتب الحرّ في أمره إلى عبيدالله بن زياد(٧٧) .

فسار الحسين في أصحابه والحرّ يسايره . وحدث أن قدمت جماعة من الكوفة ، فسألهم الحسين عن حال أهلها ، وحقيقة الموقف هناك ، فقالوا له : « أما أشراف الناس فقد أُعظمت رشوتهم ، ومُلئت غرائرهم ، يُستمال ودّهم ويُستخلص به نصيحتهم ، فهم أَلْبٌ واحد عليك . وأما سائر الناس بعد ، فإن أفئدتهم تهوى إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك »(٧٨) .

وبعد أن عرف الحسين ما آلت إليه الأمور في الكوفة ، طلبَ من أتباعه الذين قدموا معه أن يتفرقوا حيث شاؤوا ، وقال لهم : « خذلتنا شيعتنا ، فمن أحبّ منكم الانصراف فلينصرف من غير حرج عليه ، وليس عليه منّا ذمام » . وبيَّن لهم أنهمّ « إنما اتبعوه لأنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهلها ، فكره أن يسيروا معه إلّا وهم يعلمون على مايقدمون »(٧٩) . فتفرق عنه بعض ممن التف حوله . وعند

---

(٧٣) يُعلّق سيّد أمير علي في كتابه مختصر تاريخ العرب ، ص ص ٩٠ ـــ ٩١ ، على عدم سماع الحسين للذين نصحوه ، بقوله : «حاول أصدقاء الحسين إقناعه بعدم الركون إلى وعود الكوفيّين الذين وإن كانوا يتحلّون بالاندفاع وشدّة البأس والإقدام ، إلا أنهم كانوا حُوَّلاً قُلَّباً ينقصهم الثبات والحزم . «كانوا لا يستقرون على رأي ، فبينما تراهم يوماً مندفعين أشد الاندفاع في سبيل قضية أو شخص ما ، إذا بهم في اليوم التالي باردين كالثلج ، وساكنين كالموتى» .

(٧٤) القادسيّة : قرية بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً . (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٩١) .

(٧٥) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٤٩ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٩٦ .

(٧٦) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٨١ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٧٠ ؛ ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، جـ ٢ ، ص ٣٥٢ ؛ الإصابة ، جـ ٢ ، ص ٣٣٤ .

(٧٧) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ص ٢٤٩ ـــ ٢٥٠ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٧٨) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٠٣ ؛ فلهاوزن ، الخوارج والشيعة ، ص ص ١٢٦ ـــ ١٢٧ ؛ أحمد إبراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٦٨م) ، ص ٤٢٣ ؛ مصطفى أحمد أبو ضيف ، دراسات في تاريخ الدولة العربية (الدار البيضاء ، ١٩٨٣م) ، ص ٤٦٤ .

(٧٩) انظر ، اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٤٤ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٢٩٤ ، ٣٢١ ؛ اسماعيل بن كثير ، البداية جـ ٨ ، ص ١٦٩ ؛ علي الخربوطلي ، ١٠ ثورات في الإسلام ، ص ٨٣ ؛ محمد ماهر حمادة ، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي ، ص ١٩٩ ؛ فلهاوزن ، الخوارج والشيعة ، ص ١٢٦ ؛ مصطفى أحمد ، دراسات في تاريخ الدولة العربية ، ص ٤٦٤ .

ذلك ، تقدم إليه إخوة مسلم بن عقيل ، وقالوا له : « والله لا نرجع حتى نُصيب بثأرنا ، أو نقتل كلّنا » . فقال الحسين : « لا خير في الحياة بعدكم »(٨٠) . وتحوّل بمن بقي معه من القادسية إلى كربلاء(٨١) .

وهناك في كربلاء ، التقى الحُسَين بن علي مع جند آخرين كان قد أرسلهم عبيدالله ابن زياد بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص الزُّهري(٨٢) . (٢ محرم سنة ٦١هـ/٢ أكتوبر ٦٨٠م) . وقبل أن يشتبك الطرفان في معركة غير متكافئة العدد أو العدة(٨٣) ، اجتمع الحسين مع عمر بن سعد ، واستعرضا مختلف جوانب الموقف مع بعضهما ، فطلب عمر بن سعد من الحسين أن يُبايع ليزيد بن معاوية . لكنّ الحسين رفض ذلك ، فقال ، « لا أجيب ابن زياد إلى ذلك أبدا »(٨٤) . على أنه بعد أن رأى الحسين خذلان أهل العراق له ، وقلّة من معه قال لعمر وجماعته ، « اختاروا منّي واحدة من ثلاث : إما أن أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه ، وإما أن أضع يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بيني وبين رأيه ، وإما أن تسيروا بي إلى أي ثَغْر من ثُغُور المسلمين شئتم فأكون رجلاً مِنْ أهله لي مَا لَهُم ، وعليَّ ما عليهم »(٨٥) .

وتشير المصادر أن عمر بن سعد قد أظهر اللين تجاه الحسين(٨٦) ، وكاد أن يوافق على شروطه ، لولا

---

(٨٠) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٣٢٢ ــ ٣٢٣ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٧٠ .

(٨١) كربلاء : قرية في طرف البرِّية عند الكوفة . (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٤٤٥) .

(٨٢) مصعب الزُّبيري ، نَسَب قريش ، ص ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥ ؛ ابن حَجَر ، تهذيب التهذيب ، جـ ٧ ، ص ص ٤٥٠ ــ ٤٥٢ .

(٨٣) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٥٦ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٢٨١ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ؛ أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ١٥٣ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٧٠ .

ويقدم علي حسني الخربوطلي (١٠ ثورات في الإسلام) رواية فيها كثير من المبالغة ، دون أن يناقشها ، فهو يقول : «وأرسل ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص لقتال الحسين ، ولكنه تباطأ في قتاله ، فبعث شَمِر بن ذي الجَوْشَن والحُصَين بن نُمَير وشَبَث بن ربعي في جيش عدّته عشرون ألفاً ما بين فارس ورَاجِل ليُقاتلوا الحسين وكان في تسعين نفساً ما بين رجل وامرأة وطفل» .

(٨٤) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٥٤ ؛ كتاب الإمامة والسياسة ، المنسوب لابن قتيبة ، جـ ٢ ، ص ٦ .

(٨٥) كتاب الإمامة والسياسة ، المنسوب لابن قتيبة ، جـ ٢ ، ص ٦ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٢١ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٨٢ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ١١٣ ؛ ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق، جـ ٤ ، ص ٣٣٨ ؛ ابن حجر ، الإصابة ، جـ ١ ، ص ٣٣٤ ؛ تهذيب التهذيب ، جـ ٢ ، ص ٣٥٢ . لكن الشيخ محمد الخُضَري يُخالف إجماع هؤلاء المؤرخين ، وغيرهم ، على هذا الأمر فيقول : «وليس بصحيح أنه عَرَض عليهم أن يَضَع يَده في يَد يزيد» . والمُؤاخذ على الشيخ الخُضَري أنه لم يُبيّن لنا كيفية توصّله لهذا الرأي أو مصدره حتى نستطيع أن نتعرّف على مدى صحة هذا الاستنتاج .

(٨٦) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٥٤ ؛ وانظر : ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٥ ، ص ١٦٨ ؛ أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ١٥٤ .

أن عُبيدالله بن زياد كتب إليه بقوله ، « طمعت يا ابن سعد في الراحة ، وركنت إلى دَعة ، ناجز الرَّجل وقاتِله ، ولا تَرضَ منه إلّا أن يَنْزل على حُكمي »(٨٧) . كما أوصى عُبيدالله شمر بن شُرَحْبيل (ذي الجَوْشَن) الضِّبابي الكلابي(٨٨) ، حامل رسالته إلى عمر ، بقوله ، إن تَقَدّم عمر فقاتل فكُن مَعه . أما إذا تباطأ «فاترُكْهُ وكُنْ مَكانه »(٨٩) وفي رواية أخرى « فاقتُلْه وكُن مَكانه »(٩٠) .

وطلب شمر بن شُرَحبيل من الحسين بن علي أن يبايع ليزيد بن معاوية . لكنّ الحسين رفض ذلك . فكان ذلك إيذاناً ببدء القتال بين الطرفين . وعندها ، لامَ الحُرّ بن يزيد التميمي عمر بن سعد وجماعته لاستمرارهم في رَفْض عُروض الحسين ، وتحوَّل وثلاثين من جماعته بعد ذلك ، وقاتلوا في صفوف الحسين ، فقُتلوا جميعهم(٩١) . وفي ذلك يقول جعفر بن عَفّان الطائي ، الشاعر :

وَلَـمْ يَكُ فِيهِمُ رَجُـلٌ رَشِيدٌ	سِوى الْحُـرِّ التَّمِيمِـيِّ الرَّشِيـدِ
فَواحُزْنــاه إنَّ بَنــي عَلــيٍّ	وَفَاطِـمَ قَدْ أُبِيدُوا بِالحَديــدِ(٩٢)

ثم تقدم الحسين نفسه ، فقاتل حتى قُتِل ، يوم الأربعاء العاشر من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة (الموافق ١٠ تشرين الأول ٦٨٠م) . وقُتل معه ستة عشر من أهل بيته(٩٣) . ويروي المسعودي أن « جميع من قُتِل مع الحسين في يوم عاشوراء بكربلاء سبعة وثمانين ، فيهم أربعة من الأنصار . وباقي من

---

(٨٧) انظر : الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ١١٤، ؛ ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، جـ ٤ ، ص ٣٣٨ ؛ ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، جـ ٢ ، ص ٣٥٢ ؛ حسين ، علي وبنوه ، ص ٢٤٠ . لكن محمد الطيِّب النجار يقدم رأيا مخالفاً لإجماع الغالبيّة العظمى من المؤرخين . فهو يرى بأن عُبيدالله كاد أن يوافق على شروط الحُسين لولا موقف شَمِر بن ذي الجَوْشَن الضِّبابي ، الذي أشار على ابن زياد أن يتشدد في مواقفه مع الحسين . ولعلّ الرواية التي اعتمد عليها الدكتور النجّار في اتخاذ رأيه ، هي تلك الرواية نفسها التي يوردها الطبري نقلا عن أبي مِخْنَف الأزدي (تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣١٥) وهي كالآتي : «فلما قرأ ابن زياد الكتاب ، قال : هذا كتاب رجل ناصح لأميره مُشفق على قومه ، نعم . قد قَبلت» . قارن : النجّار ، الدولة الأموية ، ص ٨٩ .

(٨٨) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٦ ، ص ص ٤٦ ــ ٤٧ ، «وكان شَمِر يكنى أبا السّابِغة» ؛ ابن حزم ، جمهرة ، ص ٢٨٧ .

(٨٩) ابن عبد ربّه : العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٢١ . وفي تاريخ الطبري ، جـ ٢ ، ص ٣١٦ : «وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا وخلّ بين شَمِر بن ذي الجَوْشَن وبين العسكر فإنا قد أمَرْناه بأمرنا» .

(٩٠) أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ١٥٤ ؛ ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، جـ ٤ ، ص ٣٣٨ .

(٩١) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٥٦ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٢٦ .

(٩٢) أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ١٥٧ ؛ وفي كتاب أنساب الأشراف للبلاذري ، جـ ٣ ، ص ١٨٩ «وفي الحُرّ بن يزيد يقول الشاعر :

لنعم الحرّ حرّ بني رِيَاح	وحرّ عند مختلف الرِّماح»

(٩٣) ابن خياط ، تاريخ ، ص ٢٣٥ ؛ الزبيري ، نسب قريش ، ص ٤٠ ؛ أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ص ١٥٥ ــ ١٥٨ .

قتل معه من أصحابه من سائر العرب »[٩٤] . بينما قتل من جماعة عُمر بن سَعد ثمانية وثمانين رجلا[٩٥] . ودفن الحسين وأصحابه في الغَاضِرِيَّة[٩٦] من قِبَل جماعة من بني أسد كانوا يقيمون فيها[٩٧] .

وهكذا ، فإن رغبة الحسين بن علي ، رضي الله عنه ، في « الوصول إلى الكوفة ، لأمر هو أعلم به من الناس[٩٨] » ، لم تتم وذلك لوقوف قوات عبيدالله بن زياد في طريقه ، وتشدّدها معه ولتقاعس الذين كاتبوه عن نصرته ساعة الشدّة .

وبشأن تحديد المسؤولية في مقتل الحسين بن علي (رض) فإن يزيد بن معاوية يتحمل جزءاً كبيراً فيها[٩٩] . وذلك بحكم منصبه رأساً للنظام الحاكم . فقد كان واجباً عليه أن يكون في مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه وأن يحتاط لهذا الأمر من جميع جوانبه ، وأن يعمل كل ما في وسعه حتى لا يحدث ما حدث . وكان عليه ، منذ البداية ، أن تكون أوامره واضحة وصريحة لولاته وقادة جيوشه أن يتحلّوا باللين والسماحة ، لا أن يكونوا مثل عبيدالله بن زياد ، ومسلم بن عقبة المُرّي ، والحصين بن نمير السكوني في جبروتهم وطغيانهم .

أما عن موقف يزيد عقب مقتل الحسين ، فلا تؤكد المصادر الأولية ما ذهب إليه بعض المؤرخين المحدَثين من أن يزيد كان راضياً عن ذلك ، وأنه اغتبط له أيما اغتباط[١٠٠] . إذ تقدم تلك المصادر روايات يُستفاد منها أن يزيد قد أظهر ندمه وتأسفه على ما جرى ، في مناسبات وأوقات مختلفة . فتروي تلك المصادر أنه عندما وصل زَحْر بن قيس الطائي إلى يزيد بدمشق ، مبعوثاً من قِبَل عبيدالله بن زياد ليخبره بمقتل الحسين (رض) ، ويُسلّم إليه أبناء الحسين وبناته ، ومن بقي على قيد الحياة من أعوانه ،

---

(٩٤) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ص ٧١ — ٧٢ ؛ وانظر : البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ٢٠٥ (اثنين وسبعين رجلا) ؛ الطبري ، جـ ٢ ، ص ٣٦٨ (اثنان وسبعون رجلا) ؛ الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ص ٢٥١ — ٢٦١؛ اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٢٤٤ — ٢٤٦ ؛ كتاب الإمامة والسياسة (المنسوب لابن قتيبة) ، جـ ٢ ، ص ٦ ؛ ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، جـ ٢ ، ص ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

(٩٥) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٧٢ ؛ التنبيه والإشراف ، ص ص ٣٠٣ — ٣٠٤ ؛ وانظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ص ٩١ — ٩٣ .

(٩٦) الغَاضِرِيَّة : منسوبة إلى غَاضِرَة من بني أسد ، وهي قرية من نواحي الكوفة قريبة من كربلاء . (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ١٨٣) .

(٩٧) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ٢٠٥ ؛ الطبري ، جـ ٢ ص ٣٦٨ .

(٩٨) ابن الطقطقا ، الفخري ، ص ٨٥ .

(٩٩) يتفق المؤلّف في رأيه هذا مع كل من : اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ؛ فلهاوزن ، الخوارج والشيعة ، ص ١٣٦ ؛ الشريف، دور الحجاز ، ص ٤٢٤ ، مصطفى أحمد ، دراسات ، ص ٤٦٧ .

(١٠٠) فلهاوزن : الخوارج والشيعة ، ص ١٣٦ ؛ الشريف : دور الحجاز ص ٤٢٥ .

فوجىء يزيد بالنّبأ ، إذ لَمْ يكن يعرف بذلك ، ودَمَعت عَيناه ، وقال ، « لقد كُنت أقنع مِنْ طاعَتكم بدون قَتْل الحُسَين . لَعَنَ الله ابن (مرجانة) . أما والله لو كُنت صاحبَه لَتَركته ، رَحم الله أبا عبدالله وغفر له »[١٠١] .

ويؤيد هذه الرواية ما شرحه البلاذري في معرض حديثه عن مقتل الحسين . فقد أشار إلى أن زهير بن القين ، وكان على ميمنة الحسين ، تحدّث مع قوات عمر بن سعد (قبل قتالهم الأخير للحسين) وخيَّرهم أن ينصروا الحسين وأعوانه وإلا « فلا تَقْتُلوهم ، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد . فَلَعمري إن يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين »[١٠٢] .

وعلاوة على ذلك ، يقدّم أبو العَرَب التّميمي رواية تتسلسل بأسانيدها حتى تصل إلى محمد بن الحسين بن علي بن أبي طالب والذي يُشير فيها إلى موقف يزيد بن معاوية معهم بقوله ، « أُدخلنا على يزيد بن معاوية ونحن اثنا عشرَ غُلاماً مُغَلّلين في الجَوامِع ، وعلينا قُمُص . فقال يزيد : «أحرَزْتُم أنفسكم لعبيد أهل العراق ، والله ما علمت بخروج أبي عبدالله حين خرج ، ولا بقتله حين قُتل »[١٠٣] .

ويروي البلاذري أن محمد بن علي بن أبي طالب ، المعروف بابن الحنفية ، قدم لزيارة يزيد بن معاوية بدمشق بعد مقتل الحسين . فأحسن يزيد استقباله، وإكرامه ، ثم قال له « آجرنا الله وإياك في الحسين بن عليّ ، فوالله لئن كان نَقَصك لقد نَقَصني ، و لئِن كانَ أوجعك فقد أوجعني ، ولو أنّي أنا الذي وليت أمره ثم لم أستطع دَفع الموت عنه إلا بِجَزّ أصابعي ، أوبذهاب نَواظري لَفَدَيته بذلك »[١٠٤] .

ويشير ابن الأثير في إحدى رواياته إلى أن يزيد بن معاوية تحدَّث مع علي بن الحسين حين جاءه الأخير مودّعا قبل سفره مع إخوته إلى المدينة ، فقال له بَعد أن لامَ عبيدالله بن زياد في أمر الحسين « أما والله لو أني صاحبَه ، ما سألني خصلَة أبداً إلا أعطيته إياها ، ولدفَعت الحَتْف عنه بكلّ ما استطعت ولو بهَلاك بعض ولدي ، ولكن قَضى الله ما رأيت »[١٠٥] .

وهناك بعض الروايات تشير — أيضا — إلى أن فاطمة بنت الحسين دخلت على يزيد ابن معاوية أول

(١٠١)الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٦١ ؛ ابن عبد ربّه ، العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٢٣ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٣٧٤ — ٣٧٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٨٤ ؛ ابن تيميّة ، الفتاوي ، جـ ٤ ، ص ص ٥٠٥ — ٥٠٦ ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام ، جـ ١ ، ص ١١٢ — ١١٣ ؛ محمد الطيّب النجّار ، الدولة الأموية ، ص ٩٣ .

(١٠٢)البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ٣ ، ص ١٨٩ ؛ ابن طولون : قيد الشريد ، ص ص ٦٤ — ٦٥ .

(١٠٣)أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ١٣٤ ؛ «قال أبو عبيد : حدثنا حجاج ، قال : قال أبو مَعْشَر : حدثني يزيد بن أبي زياد ، قال : حدثني محمد بن الحسن بن علي ، قال ....» .

(١٠٤)البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(١٠٥)ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ص ٨٧ — ٨٨ .

قدومها عليه بدمشق ، وقالت له ، « يا يزيد ، أبنات رسول الله ﷺ سَبايا . قال : فبكى يزيد حتى كادت نفسه تخرج . وبكى أهل الدار حتى عَلت أصواتهم »(١٠٦) . ثم قال يزيد لفاطمة « يا ابنة أخي ، أنا لهذه كُنت أكره »(١٠٧) . وبعد ذلك أُدخلت فاطمة وأخواتها وقريباتها دور يزيد « فَلَم تَبْقَ امرأة من آل يزيد إلا أتَتهن وأقمن المأتم »(١٠٨) . ثم بعث يزيد أبناء الحسين وبناته إلى المدينة ، وظلَّ لهم مُكرما(١٠٩) .

وأورد المؤرخون رواية تفيد أن يزيد أدرك مغبَّة هذا الحادث الشنيع .وعاش طوال عمره نادماً . وكان كلما ذكر الحادث ، قال آسفاً : « لعن الله ابن مرجانه ، فإنه أخرجه واضطرَّه ، وقد كان سأله أن يخلّي سبيله ، ويرجع ، فلم يفعل . أو يضع يده في يدي ، أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله — عز وجل — فلم يفعل ، فأبى ذلك وردَّه عليه وقتله . فبغَّضني بقتله إلى المسلمين ، وزرع لي في قلوبهم العداوة ، فبغضني البرّ والفاجر ، بما استعظم الناس من قتلي حسيناً . ما لي ولابن مرجانه ! لعنه الله وغضب عليه »(١١٠) . ويشير ابن طولون إلى رواية تفيد أن يزيد قد تحدث إلى علي بن الحسين (رض)، وقال له : « أما إنه لو [أن] أباك أتاني لوصلت رحمه ، وقضيت ما يلزمني من عنقه ، ولكن عجَّل عليهم ابن زياد ، قتله الله »(١١١) .

وهناك روايات ترد في كثير من المصادر التاريخية والمراجع الحديثة تشير إلى أن رأس الحسين بن علي (رض) قد حُمل إلى يزيد بن معاوية بدمشق(١١٢) . وهذه الإشارات تأتي في معظمها نقلاً عن أبي

---

(١٠٦)كتاب الإمامة والسياسة (المنسوب لابن قتيبة) ، جـ ٢ ، ص ٧ ؛ أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ١٥٦ .

(١٠٧)الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٨١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٨٦ .

(١٠٨)الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٧٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٨٦ ؛ وانظر : ابن عبد ربه ، العِقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٢٤ ؛ ابن تيمية ، الفتاوي ، جـ ٤ ، ص ٥٠٦ .

(١٠٩)ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٨٨ ؛ لكن فلهاوزن (الخوارج والشيعة ، ص ١٣٦) ؛ أحمد إبراهيم الشريف (دور الحجاز ، ص ٤٢٥) ؛ مصطفى أحمد (دراسات ، ص ٤٦٧) يقولون : «حقاً إن المودَّة التي أبداها نحو من بقي من آل الحسين ليست مما يعيبه ، وإن كانت مودّة تنطوي على الدهاء ، ولم تصدر عن قلبٍ مخلص» .

(١١٠)الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٤٣٥ — ٤٣٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٨٧ ؛ ابن طولون : قيد الشريد ، ص ٤٠ . ويورد ابن طولون فتوى للإمام الغزالي بعدم جواز لعن يزيد لأنه لا يجوز لعن المُسْلم ، طبقاً لأقوال الرسول ﷺ : «لَعْن المؤمن كَقَتْله» وقوله عليه السلام : «لَيْسَ المُسْلم بِلَعَّان» . (قيد الشريد ، ص ٥٧) . وبشأن الأقوال المختلفة حول هذه المسألة ، انظر ، قيد الشريد ، ص ص ٥٢ — ٧٩ .

(١١١)ابن طولون : قيد الشريد ، ص ٦٦ .

(١١٢)الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٢٨٢ — ٣ ، ٣٧٤، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٤٣٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٨٧ ؛ ابن الطقطقا ، الفخري ، ص ٨٦ ؛ الخُضَري ، محاضرات ، جـ٢ (الدولة الأموية) ، ص ١٢٩ ؛ فيليب حتّي ، العرب (تاريخ موجز) (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٠م) ، ص ٨٤ ؛ حسن ، تاريخ الإسلام ، جـ ١، ص ٣٩٩ ؛ محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي : العهد الأموي

مِخْنَف لوط بن يحيى الأزدي[113] الذي يعتبر من أُميز الإخباريين في العراق[114] (ت ١٥٧هـ/٧٧٤م) . وقد ناقش ابن تيمية هذه المسألة ، ونفى أن يكون رأس الحسين (رض) قد حُمل إلى يزيد في دمشق ولكن باستناده إلى صحيح البخاري[115] . يشير بأن الرأس قد حُمل إلى عبيدالله بن زياد في الكوفة[116] ، ومع ذلك ، فقد ظلت وجهات نظر المؤرخين والباحثين حيال هذه المسألة متباينة حتى يومنا هذا[117] .

وأننا لو دقَّقنا في مختلف الروايات التاريخية التي تَتحدَّث عن مسير الحسين بن علي إلى الكوفة ومن ثم مقتله ، لوجدنا أن عبيدالله بن زياد يتحمَّل جزءاً كبيراً من المسؤولية في مَقتل الحسين . ويشير ابن تيميَّة إلى ذلك بقوله ، « وعبيدالله لا ريب أنه أمر بقتله »[118] . وقد كان بمقدوره أن يتخذ موقفاً أكثر ليونة مما تعرفنا به المصادر . لكنَّه بتشدّده وتعنّته ، ومطالبته بوجوب استسلام الحسين إليه ، لم يترك مجالاً للنقاش الهادىء والحوار البنَّاء . فكان أن أسفرت سياسته ، ومواقفه ، عن تلك المأساة المروعة .

ورغم أن صعوبة الموقف ، وحساسيته الشديدة تحتم على عبيدالله بن زياد أن يقدم اعتذاره لجموع المسلمين عمّا بَدر منه تجاه الحسين (رض) ، إلّا أنه لم يقم بذلك . ومضى في تغطرسه وعنجهيته[119] . هذا في حين أن أُم عبيدالله نفسها قد أكبَرتْ قتل الحسين . وقالت لابنها : « ويلك ! ماذا صنعت ! » وقالت له أيضاً : « يا خبيث ، قتلت ابن [بنت] رسول الله ، لا ترى الجنة

(بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٢هـ) ، ص ١٤١ ؛ عبدالعزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، (إسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، د . ت) ، ص ٣٢٩ ، عبدالمنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية (بيروت : مكتبة الجامعة العربية ، ١٩٦٦م) ، جـ ٢ ، ص ٧٦ .

(١١٣)الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص٢٨٦ ، ٣٧٠ ـــ ٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ـــ ٣٨٧ ، ٥٢٢ .

(١١٤)عبدالعزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت، دار المشرق ١٩٨٣م ، ص ص ٣٤ ـــ ٣٦ ؛ فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ، م ١ ، جـ ٢ (التدوين التاريخي) الرياض ١٩٨٣م ، ص ١٢٧ ـــ ١٣٠ .

(١١٥)البخاري ، صحيح البخاري ، جـ ٤ ، ص ٢١٦ .

(١١٦)ابن تيمية : الفتاوي ، جـ ٤ ، ص ص ٤٨٦ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ .

(١١٧)«بالنسبة لموضوع حمل الرأس إلى دمشق ، فإنه عرف بالتواتر . إذ لا يزال في الجامع الأموي بدمشق موضع يعرف بأن رأس الحسين أودع فيه قبل إعادته إلى العراق . وأن الكثيرين من أهل العراق يحتفون منذ مئات السنين بمناسبة تسمَّى (مردّ الرأس) في ٢٠ صفر من كل عام . ويقولون أن الرأس أُعيد في ذلك اليوم وتم دفنه مع الجسد في كربلاء . بل إن التواريخ المصرية تفيد أن الرأس نقل من دمشق إلى عسقلان ، ثم نقله الفاطميون إلى القاهرة ، وأقاموا له مشهداً لا يزال قائماً . فهذا التواتر لابدّ من وجود أساس له» ؟! [من تعليق الأستاذ الدكتور سامي الصقار أثناء قراءته للمسودة النهائية لهذا الكتاب] وانظر ، عباس محمود العقاد : الحسين أبو الشهداء ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٨٦م ، ص ص ١١٨ ـــ ١١٩ .

(١١٨)ابن تيميّة ، الفتاوي ، جـ ٤ ، ص ٥٠٧ .

(١١٩)الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٣٧٣ ـــ ٣٧٤ .

أبداً »[١٢٠] .

وكانت حساسية الموقف تتطلب من يزيد أن يقوم بإجراء عاجل وسريع لتهدئة الناس وتخفيف حدّة نقمتهم عليه ، وذلك بأن يقوم بعزل عبيدالله بن زياد عن منصبه ومحاكمته وسجنه مهما كانت حاجته إليه . غير أن عدم اتخاذ يزيد مثل هذا القرار الحاسم أثبت للناس عجزه عن مجابهة الأحداث الجسيمة هذه . وهذا مما زاد من نقمة الناس عليه .

وهناك شخصيات أخرى شاركت في مسؤولية مقتل الحسين ، منها : عمر بن سعد بن أبي وقاص ، وشمر بن ذي الجوشن الضبابي . وكان متوقعا من عمر بن سعد هذا مناصرة الحسين في أزمته ، أو الوقوف على الحياد ، إلّا أنه لم يقم بذلك ، بل تورَّط في ذلك الخطب الجلل . وقد شعر بفداحة فعلته ، ولكن بعد فوات الأوان ! . فنراه يقول لمن سأله عن حاله : « لا تسأل عن حالي ، فإنه ما رجع غائب إلى منزله بشرّ مما رجعت به ، قطعت القرابة القريبة ، وارتكبت الأمر العظيم »[١٢١] .

وعلاوة على ذلك ، فإن تلك الجماعة من أهل الكوفة الذي غرَّروا بالحسين ، يتحملون جزءاً ليس باليسير مما حلّ بالحسين وجماعته . فإنهم هم الذين راسلوه ، وطلبوا منه القدوم إليهم ، ووعدوه بالتأييد والنّصرة . لكنه ما أن توجَّه إليهم حتى خذلوه وتركوه يلقى مَصيره دون أن يهبّوا لنصرته والذّود عنه . وكان مسلم بن عقيل قد عبَّر عمَّا كان يجول في خاطره حيال هذه الجماعة: فقال « اللهمّ احكم بيننا وبين قوم غرّونا وكذّبونا ، ثم خذلونا وذلّونا »[١٢٢] . كما أن الحسين بن علي ، رضي الله عنه ، قال موجّها كلامه إلى أهل الكوفة ، قبل أن يشتبك معهم ، مبيّنا رأيه فيهم « لئن نَقَضْتُم عهدكم ، وخَلَعْتُم بَيعتي مِنْ أعناقكم ، فلَعَمري ما هيَ لَكُم بِنِكْر . لَقد فَعَلْتُموها بأبي وأخي ، وابن عَمّي مسلم ، والمَغْرور مَن اغتَرَّ بِكم »[١٢٣] .

ومع ذلك ، فإننا نجد بعض الآراء التي تردّ أسباب عَجز الذين ناصروا الحسين إلى سياسة عبيدالله بن زياد المتشدّدة في الكوفة . فقد « حَبَس منهم اثني عشر ألفاً ، ولم يترك أحدا من زعمائهم طليقاً ، وهدَّدهم بقدوم جيش الشام »[١٢٤] . ولكننا نرى أن هذه الجماعة كانت أكثر عددا وعدَّة من غيرها في الكوفة . وأن عبيدالله بن زياد ــ رغم تهديداته المستمرة ــ لم يَستعن بجند أهل الشام في ضبط الأمور

---

(١٢٠) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٠٨ .

(١٢١) العصامي : سمط النجوم العوالي ، جـ ٣ ، ص ٧٧ .

(١٢٢) انظر : الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ص ٦٩ ــ ٧٠ ؛ أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ١٠٧ ؛ ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، جـ ٢ ، ص ٣٥٣ .

(١٢٣) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٠٠ .

(١٢٤) رأي للأستاذ المظفري ، مثبت في كتاب ١٠ ثورات في الإسلام ، لعلي حسني الخربوطلي ، ص ص ٨٣ ــ ٨٤ . ويشاركه عبدالمنعم ماجد ، بعض الشيء ، في رأيه هذا . (التاريخ السياسي للدولة العربية ، جـ ٢ ، ص ٧٩) .

بالعراق إبان فترة ولايته . يقول المسعودي في إحدى رواياته مُعلّقاً على مثل هذا الأمر « وكان جميع مَنْ حَضرَ قَتْل الحُسَين من العساكر وحاربه وتولّى قَتْله مِنْ أهل الكوفة خاصّة ، لَمْ يَحْضُرهُم شاميّ »[١٢٥] .

وقد كان من النتائج المباشرة لوقعة كربلاء : خلوّ الجوّ لعبدالله بن الزبير ليتزعّم حركة المعارضة لخلافة يزيد بن معاوية في الحجاز وغيره من الأقاليم . وهذا ما سنبيّنة لاحقاً[١٢٦] .

ومن ذلك أيضاً قيام الحركات الثأرية في الكوفة وغيرها ، مثل حركة التوّابين[١٢٧] (سنة ٦٤هـ ـــ ٦٥هـ) وحركة المختار بن أبي عبيد الثقفي[١٢٨] (٦٧هـ) . وكلها نادت بالثأر لمقتل الحسين (رض) .

وأما عن النتائج الأخرى التي خلّفتها وقعة كربلاء ، فتتمثل فيما شرحه ابن تيمية من أن وجهات النظر عند الناس حول مقتل الحسين قد انقسمت إلى ثلاث فئات : الفئة الأولى والثانية منها كان في رأيهما مغالاة . (كما يشير بذلك أحد الباحثين المحدَثين[١٢٩] . أما الفئة الثالثة ـــ كما يشير ابن تيمية ـــ فكانت ترى أن الحسين (رض) قُتل شهيداً مظلوما . وأن الذين واجهوه لم يُمكنوه مما عَرضه عليهم . وطلبوا منه أن يستأسِر لهم ، وهذا لم يكن واجباً عليه[١٣٠] . وهذا هو الرأي الذي يميل مؤلّف هذا الكتاب إليه . وعلى أية حال ، فإن مقتل الحسين بن علي (رض) سيظل وصمة عار ، ونقطة سوداء في تاريخ الدولة الأموية .

---

(١٢٥) المسعودي ، مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٧١ .

(١٢٦) انظر ، ص ٧٠ من هذا الكتاب .

(١٢٧) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٤٩٧ ـــ ٥٧٦ .

(١٢٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ص ٢١١ ـــ ٢٧٨ .

(١٢٩) مصطفى حلمي ، نظام الخلافة ، ص ٢٤ ؛ وانظر ابن تيمية : منهاج السُّنّة ، جـ ٢ ، ص ص ٢٤٧ ـــ ٢٤٨ ؛ وانظر : ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ص ص ١٦٠ ـــ ١٨١ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ص ٣٨٢ ـــ ٣٨٦ .

(١٣٠) ابن تيمية : منهاج السنة ، جـ ٢ ، ص ٢٤٨ .

(٢) موقف أهل المدينة ، ووقعة الحَرَّة (٦٣هـ/٦٨٣م) :

بايع أهل المدينة يزيد أول توليه الخلافة سنة ٦٠هـ/٦٨٠م وانضووا تحت لوائه ، وظلوا ساكتين وموالين له . وكان سكوتهم هذا ـــ ولفترة طويلة ـــ يعني موافقتهم على خلافته ، ودخولهم فيما دخلت فيه الجماعة الإسلامية . لكنهم ما لبثوا أن تحركوا فجأة في سنة ٦٣هـ/٦٨٣م ، وأعلنوا تمردهم على يزيد ، وتحاربوا مع قواته فيما يعرف بوقعة الحَرَّة .

وحاول المؤرخون إيجاد تفسير لهذا التغير المفاجيء من أهل المدينة . فألمح أحدهم أن ذلك جاء نتيجة لمقتل الحسين وعدم إنصاف يزيد لآل الحسين[١] . وحاول آخر أن يقرنها باعتصام عبدالله بن الزبير في مكة[٢] . في حين أرجع البعض الآخر من المؤرخين ذلك إلى ما وصل لأهل المدينة عن يزيد من سوء السيرة[٣] .

ولكننا نجد في المصادر التاريخية روايات تشير إلى أنه لم يخرج مع الحسين أحد من أهل المدينة . كما أن آل علي بن أبي طالب (رض) وخاصة محمد بن الحنفية ، وعلي بن الحسين بن علي لم يشاركا أهل المدينة في حركتهم هذه . كما أن يزيد بن معاوية ظل مكرماً لآل الحسين في المدينة وغيرها[٤] . أما عبدالله بن الزبير في مكة ، فلم يحصل أن أرسل أية إمدادات أو قدم أية مساعدات لأهل المدينة في حركتهم ضد يزيد . وأما بالنسبة لسوء سيرة يزيد فإن المصادر التاريخية لا تبخل علينا بالمعلومات الكفيلة بالتقليل من أهمية هذا السبب . ولتوضيح ذلك لابد أن نشير ـــ ولو بإيجاز ـــ إلى ما ورد في المصادر التاريخية حيال هذه المسألة :

يُجمع المؤرخون على أن عثمان بن محمد بن أبي سفيان (والي المدينة ليزيد في سنة ٦٣هـ/٦٨٣م) أرسل وفداً من أهل المدينة إلى يزيد بدمشق لإظهار مدى استتباب الأمور في ولايته ، وليدلل على استمرار ولاء أهل المدينة وطاعتهم للخليفة الأموي . وكان الوفد الذي أرسله عثمان يضم عدداً من زعماء أهل المدينة من أمثال : عبدالله بن مُطيع العدوي ، وعبدالله بن حَنْظَلة الأوسي الأنصاري ، وعمرو بن حفص بن المغيرة المَخزومي ، والمنذر بن الزبير بن العَوّام . فلما وصلوا عند يزيد ، أكرمهم ، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطيات ، فقد أعطى كل نَفَر منهم حوالي مائة ألف درهم ، كما أعطى كل واحد من

---

(١) سيّد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص ٩٣؛ «وكان الشعور في المدينة (إثر مقتل الحسين) من القوة بحيث أن يزيداً أرسل على عَجَل عاملاً خاصاً لتهدئة الناس . وبناء على مشورته أرسل وجهاء المدينة وفداً منهم إلى الخليفة يتوسطونه في إنصاف آل الحسين » .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ قسم (١) ، ص ٣١٩ .

(٣) انظر الرواية الخاصة بذلك والتي تقع تحت التعليقة رقم (٨،) وكذلك المصادر المذكورة في تلك التعليقة .

(٤) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٥ ، ص ص ١٤٥ ، ٢١٥ ؛ فلهاوزن : الخوارج والشيعة ، ص ١٣٤ .

أبناء عبدالله بن حَنْظَلة ــ وكانوا ثمانية ــ عشرة آلاف درهم «سوى كسوتهم وحملانهم»[٥] . ولعلّ يزيد بإعطائه مثل هذه المبالغ ، أراد أن يَتحبَّب إلى الناس ، وليدلّل لهم على أنه يسير فيهم على خطى والده الذي طالما أكرم أهل الحجاز سواء وفَدوا عليه أم لم يَفدوا[٦]. ثم إن معاوية كان قد أوصى ولده يزيد بأهل الحجاز خيراً ، فقال له : «فإنهم قومك وعشيرتك ، فأكرم من قَدم عليك منهم وَصِل مَنْ غابَ عنك منهم»[٧] . ولكنهم عندما رجعوا إلى المدينة أظهروا شَتْم يزيد ، وتَنكّروا له ، وقالوا للناس : «قَدِمْنا مِنْ عند رجل ليس له دِين ، يَشرب الخَمر ، ويضرب بالطنابير ، ويَعزف عنده القيان ، ويَلعب بالكلاب ، ويَسمر عنده الخُرَّاب (يعني اللصوص) وإنا نُشهدكم أنّا قد خلعناه»[٨] ، وكان هذا ، كما تصوّره المصادر التاريخية ، بداية خلاف أهل المدينة على يزيد بن معاوية .

على أنه يتبين لنا أن أهل المدينة أنفسهم قد استغربوا مثل هذه الاتهامات ، وسألوا عبدالله بن حنظلة ، قائلين : «فإنه قد بلغنا أنه أكْرمَك وأجازَك وأعطاك»! فأجابهم قائلا : «قد فَعل ، وما قبلت ذلك منه إلّا لأتَقوّى به عليه (أي على قتال يزيد) وحَضّض الناس فبايعوه»[٩] .

وعلاوة على ما تقدم ، فإن بين أيدينا رواية تساعدنا في الرَّد على معظم الروايات التي تَطعن في سيرة يزيد بن معاوية . وتكمن أهمية هذه الرِّواية في أنها صَدَرت عن شخصية لها اعتبارها في الأوساط الإسلامية . ألا وهو محمد بن علي بن أبي طالب ، المشهور بابن الحَنَفيَّة[١٠] . فيروي البلاذري أن محمدا رفض اتهامات أهل المدينة في حقّ يزيد كما مانع في مشاركتهم خروجهم على طاعته . ويشرح لنا البلاذري

---

(٥) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ قسم ١ ، ص ٣٣٤ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ص ص ٤٢٢ ــ ٤٢٣ ؛ ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، جـ ٧ ، ص ٣٧٥ .

(٦) انظر ، ابن سعد : الطبقات ، جـ ٤ قسم١ ، ص ٦٣ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٨ ، ص ص ١١٥ ، ١٣٧ ؛ ابن العمراني : الإنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ٤٩ ؛ ابن الطقطقا : الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٩٥ ؛ السيف : الحياة الاقتصادية ، ص ٢٠١ .

(٧) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ١٤٥ ؛ العصامي : سمط النجوم العوالي ، جـ ٣ ، ص ٤٧ .

(٨) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٥ ، ص ٦٦ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٢١ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٠٣ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٠٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٢١٦ ؛ السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ١ ، ص ١٢٧ ؛ العصامي ، سمط النجوم العوالي ، جـ ٣ ، ص ٨٨ .

(٩) راجع : خليفة بن خياط ، كتاب التاريخ ، ص ٢٣٧ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، ص ٣٣٤ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٢٣ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٢٨ ؛ ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، جـ ٧، ص ٣٧٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٢٢٢ .

(١٠) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، جـ ٩ ، ص ٣٥٤ .

موقف محمد ، بقوله : «فلما وثب الناس بيزيد وخلعوه ، جاء عبدالله بن مُطيع في رجال[١١] من قريش والأنصار فقالوا لابن الحَنَفيَّة . أُخرج معنا نُقاتل يزيد. فقال لهم محمد بن علي : على ماذا أُقاتله ، ولم اخلعه ؟! قالوا : إنَّه كَفَر وفَجَر ، وشرب الخمر ، وفَسَق في الدّين ، فقال لهم محمد بن الحَنفيَّة : ألا تَتَّقون الله ، هل رآه أحد منكم يعمل ما تذكرون ؟ وقد صحبته أكثر مما صحبتموه فما رأيت منه سوءا . قالوا : إنه لم يكن يطلعك على فعله ، قال : أفأطلعكم أنتم عليه ؟! فلئن كان فَعل ، إنكم لشركائه ، ولئن كان لم يطلعكم ، لقد شهدتم على غير ما علمتم»[١٢] .

وبناء على ما تقدم ذكره ، ونظراً لمضي أكثر من سنتين ونصف على خلافة يزيد وبيعة أهل المدينة ، فإن هناك تساؤلاً مشروعاً عن السبب الذي جعلهم يغيرون موقفهم بهذه السرعة المفاجئة .

ويمكن الإجابة على هذا التساؤل من خلال الروايات التي قدّمها بعض المؤرخين القدامى من أمثال : اليعقوبي[١٣] ، وصاحب كتاب الإمامة والسياسة[١٤] ، وأبو العرب التميمي[١٥] (ويتابعهم في ذلك السمهودي)[١٦] . ولما كانت الرواية التي قدمها أبو العرب أكثر تفصيلا ووضوحاً ، فلا بأس من إثباتها هنا ، (قال الواقدي : أول ما هاج من أمر الحرّة أن ابن مِينَا[١٧] ، وكان عاملاً على صَوافي المدينة لمعاوية بن أبي سفيان وبالمدينة يومئذ صَوافٍ كثيرة كان معاوية يَجُدّ بالمدينة وأعراضها ألف وِسْق[١٨] وخمسين

---

(١١) ورد في الرواية اسم عبدالله بن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنهما . ولكن يبدو أن هذا خطأ من أحد النساخ . فالمشهور أن ابن عمر لم يشترك في أية حركة وكان دائم النصح للناس بعدم الخروج على الولاة ، والدخول فيما دخل فيه المسلمون . ويروي ابن سعد أن عبدالله بن عمر قد وجّه النصح إلى عبدالله بن مطيع العدوي بعدم الخروج على إجماع الأمة . (الطبقات ، جـ ٥ ، ص ٤٤ ؛ وانظر : أبو زرعة عبدالرحمن بن عمرو الدمشقي ، تاريخ ، تحقيق شكرالله القوجاني «دمشق ، ١٩٨٠م» ، جـ ١ ، ص ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠) . ولعل المقصود هنا هو عبدالله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي ، إذ كان ضمن وفد أهل المدينة إلى يزيد بن معاوية . (الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٠٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٠٣) . ويورد ابن كثير هذه الرواية ، مثبتا فيها اسم عبدالله بن مطيع العدوي دون ذكر عبدالله بن عمر ، مما يدلّل على صحة ما ذهبنا إليه . (البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ص ٢٣٢ ــ ٢٣٣) .

(١٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٣ ، ص ص ٢٧٨ ــ ٢٧٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٨، ص ٢٣٣ .

(١٣) اليعقوبي ، كتاب التاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٠ .

(١٤) كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ ١ ، ص ص ١٧٦ ــ ١٨٨ .

(١٥) أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ص ١٧١ ــ ١٨١ ، ١٨٤ ــ ٢٠١ .

(١٦) السَّمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ١ ، ص ص ١٢٢ ، ١٢٤ ــ ١٣٨ .

(١٧) لعله هو عبدالرحمن بن أبي أحمد بن جَحش الذي أشار إليه السَّمهودي في كتابه وفاء الوفاء ، جـ ٣ ، ص ص ١٢٧٥ ــ ١٢٧٦ «وكان وكيله بضياعه بالمدينة ، يعني أودية اشتراها واعتملها» .

(١٨) الوَسْق : «ستون صاعا . قال الخليل : الوَسْق : هو حِمْل البَعير» . انظر : الجوهري ، الصحاح ، جـ ٤ ، ص ١٥٦٦ .

ألف وسق تمرا ، ويحصد مائة ألف وسق حنطة . فلما ولي يزيد بن معاوية عزل الوليد بن عتبة بن أبي سفيان[١٩] عن المدينة . وكان معاوية استعمله عليها وولى عثمان بن محمد بن أبي سفيان على المدينة . وان ابن مينا أقبل بسَراح له من الحُرَيرة[٢٠] يريد الأموال التي كانت لمعاوية . فلم يزل يسوفه ولا يصرفه عنه أحد حتى انتهى إلى بَلحارث بن الخَزرج ، فَنَقَب النَّقيب فيهم ، وقالوا : ليس ذلك إليك . هذا حَدَثٌ وضَرَرَ علينا . فمكثوا على ذلك شهرا يغدو ابن مينا ويروح بعمَّاله . فمرَّة يعمل فيه ، ومرة يأبون عليه ، ومرَّة لا يجد أحدا يريد أن يبني ، فيعمل حتى يُمسي . ومرَّة أخرى يجتمعون فلا يضرب بمِعْوَل ولا بمِسْحَاة حتى يمسي . فلما طال ذلك عليه كلَّم الأمير عثمان بن محمد ، وأعلمه بما لقي منهم . فأرسل الأمير إلى ثلاثة نفر من بَلحارث بن الخَزرج : محمد بن عبدالله بن زيد ، وزهير بن أبي مسعود ، ومحمد بن النعمان بن بشير . فأجابوا إلى أن يمرّوا به حيث أراد . فدعا ابن مينا بعمّاله ، فعمل شيئا ثم تداعوا . فمشى المِسْوَر بن مَخْرَمة فأخبَرَه بما أجابوا إليه، وقال : أراك عجلت على القوم . فعدى ابن مينا بعمّاله ، فعمل شيئا ، ثم تداعوا ، فمشى المِسْوَر بن مَخْرَمة ، وعبدالرحمن بن عبدالقاري ، وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، وعبدالله بن مطيع ، وعبدالرحمن بن عبدالله بن أبي ربيعة إلى هؤلاء النفر فشرّدوهم ، وقالوا : لا تَدعوه يَنقُب في حقّكم إلّا بطيب نفس منكم . فلما كان الغد ، غدا ابن مينا في أعوانه ، فذادوهم عن العمل . فرجع إلى عثمان بن محمد فأعلمه بذلك فغضب ، وقال : اجمع لهم من قدرت عليه من مواليكم . وبعث معه بعضاً من جنده ، وقالوا : مُرّوا به على بطونهم ، فإن الله لا يدعهم حتى يحلّ بهم عقابه . فغدا ابن مينا بمن معه ، وغَدت الأنصار ، وردفتهم قريش ، فذبّوهم حتى تفاقم الأمر ، فرجَع ولم يَعمل شيئا[٢١]) .

ويضيف الواقدي قائلا : « (ثم) دَخل على عثمان بن محمد عَشرة من قريش ، ونفر من الأنصار ، فكلّموه فيما عمل ابن مينا ، وما جمع عليهم ، فوجدوه هو الذي قوّاه على ذلك . وأغلظ لهم وأغلظوا له . فقال : لأكتبن إلى أمير المؤمنين بسوء رأيكم ، وما تُخفون عليه من الأضغان القديمة ، والأحقاد التي لا تبلى في صدوركم ، فافترقوا على مَوجدَة منهم ، واجتمعوا على مَنْع ابن مينا ، وكفَّ ابن مينا عن العمل»[٢٢] .

وعند ذلك كتب عثمان بن محمد بن أبي سفيان إلى يزيد بن معاوية يعلمه بما وقع من أهل المدينة . وعرَّفه بما واجهَه معهم من صعوبات . فما كان من يزيد إلا أن أرسل النعمان بن بشير الأنصاري ليحاول أن يثني أهل المدينة عن الاستمرار في عصيانهم . وليحذرهم من مغبّة الاستمرار في عملهم

---

(١٩) تصف المصادر الوليد بن عتبة أنه كان «يحب العافية» وأنه كان «رجلا رفيقاً سَرِياً كريما» . انظر : ابن خياط ، التاريخ ، ص ٣٣٣ ؛ الدينوري ، الأخبار الطوال ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٢٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٥ .

(٢٠) الحُريرَة : موضع بين الأبواء ومكة ، قرب نخلة . ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٥٠) .

(٢١) انظر نص الرواية كاملة في كتاب المِحَن لأبي العرب التميمي ، ص ص ١٧١ ــ ١٧٢ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ص ١٧٢ ــ ١٧٣ .

هذا . وكان مما قاله يزيد للنعمان : « إن عدد الناس بالمدينة الأنصار ، وهم قومك ، فآتهم فاثنأهم عمّا يريدون »(٢٣) . فذهب إليهم النعمان ، ونصحهم ، لكن أهل المدينة لم يستمعوا إليه ، فتركهم وعاد إلى دمشق . وكان هذا إيذاناً بأن يتّخذ يزيد ما تبع ذلك من خطوات .

وعلى أية حال ، فإذا افترضنا أن ما ورد في هذه الرواية يمكن أن يكون سبباً طارئاً أو عرضياً من أسباب تلك المجابهة ، فإن مثل هذا الافتراض يتطلب البحث عن أمرين هامين جداً ، أولهما : ما مدى صحة وأهمية ما قدّمه لنا الواقدي من روايات ؟ وثانيهما : كيف تسنّى لمعاوية وآله حيازة هذه المساحات الواسعة من الأراضي في منطقة المدينة وأعراضها ؟

وللإجابة على التساؤل الأول نقول بأن محمد بن عمر بن واقد الواقدي (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) قد وُصف في المصادر التاريخية بأنه « ثقة »(٢٤) . كما أنه كان عالماً بأخبار أهل الحجاز(٢٥) . وأن أهمية رواياته تكمن في اعتماده كثيراً على ذكر رجال السَّند للحادثة التي يُؤرخ لها . وهو هنا — فيما قدمه من روايات حول وقعة الحَرَّة — يتدرَّج برجال السَّند حتى يَصل إلى إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حَبِيبَة الأنصاري(٢٦) ، مولى بني عبد الأشهل الذي تُوفي سنة ١٦٥هـ/٧٨١م . وتُخبرنا كتب التَّراجم أن إبراهيم هذا أخذ رواياته عن داود بن الحُصَين(٢٧) مولى آل عثمان بن عَفّان بالمدينة . وإذا ما عَرفنا أن داود قد توفي في سنة ١٣٥هـ/٧٥٢م (أي بعد مضي اثنتين وسبعين سنة على وقعة الحَرّة نفسها) ، وإذا ما وافقنا المصادر التاريخية التي تُشير إلى أن أهل المدينة لم يُخرجوا (جميع) آل عثمان من بني أمية من المدينة(٢٨) ، فإنّنا — والحالة هذه — يمكننا القول بأن الروايات التي وصلتنا عن داود بن الحُصَين حول وقعة الحَرّة هي روايات موثوق بها ، لأنها — من المحتمل أن تكون — صادرة عن شاهد عيان للحادثة نفسها(٢٩) . وَنُؤكد ما سبق بما ورد في المصادر التاريخية من أن داود بن الحُصَين قد ألَّف كتاباً حول وقعة الحَرّة ، أسماه تَسمية من قُتِل بالحَرَّة(٣٠) . ثم جاء بعده تلميذه إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حَبِيبَة الأنصاري ، فكَتَب كتابا عن الحادثة نفسها ، واحتفظ له بنفس عنوان كتاب أستاذه

---

(٢٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٢١ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٠٤ .

(٢٤) ابن حَجَر ، تهذيب التهذيب ، جـ ٩ ، ص ٣٦٦ ؛ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جـ ٧ ، ص ٥٥ .

(٢٥) ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٣٧ ؛ ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، جـ ٧ ، ص ٥٥ — ٥٨ .

(٢٦) أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ١٨٧ ؛ وانظر ترجمة حياته في كتاب تهذيب التهذيب لابن حجر ، جـ ١ ، ص ١٠٤ .

(٢٧) انظر ترجمة حياته في كتاب تهذيب التهذيب لابن حجر ، جـ ٣ ، ص ١٨١ .

(٢٨) الأزرقي ، تاريخ مكة ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ ؛ أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ١٧٤ .

(٢٩) هذا على افتراض أن دواد كان في حوالي العاشرة من عمره أيام وقوع الحادثة . وكما نعرف ، فإن شاهد العيان هو أصدق مصور لأية حادثة لأنه يعاصر الحادثة نفسها ، ويسجلها كما يشاهدها بأم عينه ، على عكس الراوي الذي يحتمل كثيرا أن يحور في الحادثة ، ويبدل حقائقها . ولهذا قالوا قديما : «وما آفة الأخبار إلا رُواتها» .

(٣٠) أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ١٨٧ .

السابق(٣١) . أما الواقدي ، فقد جاء متأخراً عنها . ولكنه ـــ بلا شك ـــ قد اطلع على كتابات من سَبقوه ، وتأثر برواياتهم . وألف في ذلك كتابا أسماه كتاب الحَرّة(٣٢) ، مما يَدل على أنه أكثر شمولية عمَّن سبقوه . وعلى أية حال ، فإن جميع الكتب التي ورد ذكرها لا زالت في حكم المفقود ، وإن أمل العثور عليها ضئيل جداً .

أمَّا عن الأراضي الزراعية في المدينة وأعراضها ، فتخبرنا المصادر أنه كانت هناك أراض ذات تربة زراعية خصبة . وأن هذه الأراضي قد استغلت استغلالاً جيداً في الزراعة . وقد ساهمت خبرة السكان بأمور الزراعة ، إضافة إلى كثرة الجبال الغنيَّة بالمياه [ومنها : جبل آره ، وجبل أبلى ، وجبل أعظم] وكثرة الآبار [فقد كان هناك أكثر من ٣٤ بئرا في المدينة] ، وكثرة الأودية [ومن أشهرها : وادي العقيق ، ووادي سايَه وبه أكثر من سبعين عينا . وكانت تكثر فيه مزارع النَّخيل ، ومزارع المَوز والرُّمان والعنَب ، ووادي الصَّفراء وهو كثير النَّخل والزَّرع ، وماؤها عيون كلها(٣٣)] في إثراء وتنشيط الحياة الزراعية في المدينة .

وأما عن كيفية حيازة معاوية وآله من بني أُمية لمساحات واسعة من الأراضي في المدينة وأعراضها فربَّما جاء من عدّة طرق ، أولها : أن معاوية ورث هذه الأراضي في المدينة ـــ وغيرها في منطقة الحجاز ـــ عن والده أبي سفيان الذي كان من سادة قريش ، وكبار ملاكيها ، كما أنه كان تاجراً كبيراً . فلا غَرو إذا ما ملك مساحات كبيرة من الأراضي(٣٤) .

وثانيهما : أن معاوية اشترى هذه الأراضي من ماله الخاص . فأصبحت بالتالي ملكاً له ولأهله من بَعده يَتصرَّفون بها كيفما يشاؤون . فنجد على سبيل المثال ، روايات تشير إلى أن معاوية اشترى موضع ثَنيَّة الشَّريد(٣٥) « وكانت كما يقول ابن زُبالَة (ت ١٩٩هـ/٨١٤م) أعنابا ونَخْلاً لم يُرَ مِثلها »(٣٦) . كما دَفع معاوية ثلاثة آلاف درهم إلى عمرو بن سعيد بن العاص ، أثمان أراض كان يملكها والده (سعيد) في عَرْصَة البُقْل(٣٧) . واشترى معاوية عيونا في يَنبع كانت تعرف بـ « البُغَيْبِغَات » ،وهي التي حفَرها علي

(٣١) المصدر السابق والصفحة .

(٣٢) السَّمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

(٣٣) انظر : الفيروزآبادي ، المغانِم المُطابَة ص ص ٣ ـــ ٤ ، ١٧ ، ٢٥ ـــ ٥١ ، ١٣٥ ـــ ٢١٩ ، لطيفة البسام ، «الحركة العلمية في الحجاز ص ص ٩ ـــ ١١ ؛ عبدالله بن إدريس : مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ ، ص ص ٢٠٣ ـــ ٢٠٨ .

(٣٤) راجع : السيف، الحياة الاقتصادية ، ص ص ٥٠ ، ٥٥ ، ٦٢ .

(٣٥) كانت لرجل من بن سُلَيم كان بقية أهل بيته ، فقيل له الشَّريد . السمهودي : وفاء الوفاء ، جـ ٣ ، ص ١٠٦٦ .

(٣٦) السَّمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ٣ ، ص ص ١٠٦٦ ـــ ١٠٦٧ ؛ السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ص ٦١ ، ٦٩ . وانظر الملاحظة رقم ٤ من هوامش صفحة ٦٩ عنده .

(٣٧) ياقوت ، معجم البلدان، جـ ٤ ، ص ص ١٠١ ـــ ١٠٢ ؛ وانظر : السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ٤ ، ص ص ١٠٥٤ ـــ ١٠٥٥ .

بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، ثم أعطاها الحسين بن علي إلى عبدالله بن جعفر بن أبي طالب « يأكل ثمرها ، ويَستعين بها على دَيْنِه » . ولكنّه ــ أي عبدالله ــ باعَها من معاوية « بمبلغ مليوني درهم »[٣٨] . وفوق ذلك ، فقد اشترى معاوية موضع قَصر بني جَديلَة من حَسَّان بن ثابت الأنصاري بحوالي مائة ألف درهم[٣٩] .

وعلى الرغم من هذه الأمثلة التي تُبيِّن أن معاوية كان يدفع أثمانا باهظة لقاء تملّكه هذه الأراضي ، إلّا أن صاحب كتاب الإمامة والسياسة حاول أن يُقدّم ــ بأسلوبه الخاص ــ صورة مشوّشة عن كيفية حيازة معاوية لأراضيه . إذ يشير إلى أن نقاشا قد وقع بَين أهل المدينة وبين عثمان بن محمد بن أبي سفيان (والي المدينة ليزيد) فقالوا : « قد علمت أن هذه الأموال كلّها لنا ــ وأن معاوية آثر علينا في عطائنا ، ولم يعط قطّ درهما فما فوقه ، حتى مضّنا الزمان ، ونالّتنا المجاعة ، فاشتراها منا بجزء من مئة من ثمنها »[٤٠] .

ولكننا لو دققنا في إجابة حسّان بن ثابت الأنصاري للذين لاموه ببيع أرضه لمعاوية لوجدنا فيها ما ينفي أقوال صاحب كتاب الإمامة والسياسة . فقد قال حسّان : « ألا أبيع صاعاً من تَمر بصاع من دَراهم »[٤١] .

ولعل صاحب كتاب الإمامة والسياسة بنى رأيه ذاك على أثر الترتيبات التي اتخذها معاوية بشأن توزيع الأعطيات على أهل المدينة من الديوان . إذ إن معاوية أمرَ بأن تدفع الأعطيات « للحاضر دون الغائب ، وللحيِّ دون الميِّت ، ولا يُعطى أحد إلا في يده »[٤٢] . فلم تُرض محاولة معاوية هذه أهل المدينة ، فعَدل عن خطته ، وعمل على استرضائهم . ويروي صاحب كتاب الإمامة والسياسة ، نفسه ، أن معاوية عندما حجّ « أعطى الناس أعطياتهم ، وأجزل العطاء ، وأخرج إلى كل قبيلة جوائزها وأعطياتها »[٤٣] .

فإذا كانت الأراضي التي تحدث عنها المؤرخون الذين ذكرناهم سابقاً ، تقع ضمن هذه النوعية ، ففي هذه الحالة يكون الخليفة هو المسؤول المباشر عنها ، ويكون ابن مينا وكيلاً له . أما إذا لم يكن الخليفة هو المالك الفعلي لها ، فإن هناك اعتبارات أخرى تجعله مسؤولاً عن الإشراف على هذه الأراضي ، والاطمئنان

---

(٣٨) الزبير بن بكار ، جمهرة نسب قريش ، ص ٣٦٥ ؛ السَّمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ٤ ، ص ص ١١٥٠ ــ ١١٥١ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٤٦٩ (بُغَيْبِغَة) ، جـ ٤ ، ص ١٧٥ (عَين أبي نَيْزَر) .

(٣٩) السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ٣ ، ص ص ٩٦١ ــ ٩٦٣ .

(٤٠) كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ ١ ، ص ١٧٦ .

(٤١) السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ٣ ، ص ٩٦٢ .

(٤٢) مصعب الزبيري ، نسب قريش ، ص ١٥٤ ؛ السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٨٦ .

(٤٣) كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ ١ ، ص ١٦٤ ؛ السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٨٦ .

على عدالة استغلالها ، ومن ذلك أولاً ، أرض الصَّوافي : وهي تلك الأرض التي جلى عنها أهلها ، أو قتلوا في الحروب(٤٤) ، فظلت دون مالك لها ، فأصبح الإشراف عليها لولي الأمر يتصرَّف فيها بالطريقة التي يراها مناسبة لصالح المسلمين ويعود ريعها إلى بيت مال المسلمين . ويرى أبو يوسف : « إن الصَّوافي بمَنزلة المال الذي لم يَكُن لأحد ، ولا في يَد وارث ، فللإمام العادل أن يجيز منه ، ويعطي من كان له غناء في الإسلام ، ويضع ذلك موضعه ، ولا يحابي به »(٤٥) . وإذا نظرنا إلى أراضي أهل المدينة ، وطبقنا هذا المعنى عليها ، فإنه يتبين لنا أنها تنقسم إلى عدة فئات : أرض كانت تملكها جماعات معينة كاليهود مثلا لكنهم تُوفوا(٤٦) ، أو جلوا عنها وتركوها(٤٧) . وأرض كان يملكها رجال من المسلمين ولكنهم خَرَجوا مع جيوش الفتح إلى بلاد الشام والعراق وبلاد فارس . فبعضهم رجع إلى المدينة ثانية ، ومنهم من فَضَّل البقاء حيث كان(٤٨) . وأرض ظَلَّت ملكاً لأصحابها لكنهم استبدلوها بأراضي أوسع وأكثر خصبا في الأقاليم المفتوحة . كما حَصَل مع طلحة بن عُبيدالله التَّيمي الذي استبدل أرضه في الحجاز بأرض يقال لها النَّشَاسْتَج ، قرب الكوفة(٤٩) .

كما أن هناك طريقة أخرى جعلت خلفاء بني أمية يشرفون على أراضي المدينة ، ألا وهي ما يُعرف بـ « الحِمىٰ » . وهو « الموضع الذي فيه كلأ يُحمى ممَّن يَرعاه . وشرعا : موضع من الموات يُمنع من التَّعرض له ليتوفر فيه الكلأ فترعاه مواشٍ مخصوصة ألا وهي إبل الصَّدقة وخَيل المسلمين وركابهم »(٥٠) . وقد كان الرسول الكريم ﷺ ، أول من حمى الحِمىٰ في المدينة . ثُمَّ زاد فيه الخلفاء الراشدون من

---

(٤٤) أبو يوسف ، كتاب الخراج ص ص ٦٢ ــ ٦٣ ؛ الدوري ، مقدمة ، ص ص ٥٧ ، ٨٦ .

(٤٥) أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٦٨ . وانظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٧٢ .

(٤٦) كما حصل مع مُخَيريق اليهودي الذي وهَب أملاكه في المدينة للرسول الكريم ﷺ ، وكانت فيها أراضٍ زراعية واسعة . قُتل مُخَيريق في غزوة أحد (٣هـ/٦٢٤م) فوضع الرسول الكريم ﷺ ، أملاكه في بيت مال المسلمين . انظر : عبدالملك بن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (بيروت ، ١٣٩١هـ) ، جـ ٣ ، ص ص ٨٨ ــ ٨٩ ؛ السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ٣ ، ص ص ٩٨٨ ــ ٩٨٩ ؛ نورة آل الشيخ ، الحياة الاقتصادية في المدينة في صدر الإسلام (جدة : دار تهامة للنشر ، ١٩٨١م) ، ص ٣١ .

(٤٧) كما حصل مع يهود بني قينقاع (سنة ٢هـ/٦٢٣م) وبني النضير (سنة ٤هـ/٦٢٥م) وبني قريظة (سنة ٥هـ/٦٢٦م) ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، جـ ٣ ، ص ٢٠١ .

(٤٨) السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ٣ ، ص ص ١٠٨٢ ــ ١٠٨٥ .

(٤٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ١ ، ص ص٢٨٥٤ ــ ٢٨٥٦ ؛ وفي معجم البلدان لياقوت ، جـ ٥ ص ص ٢٨٥ ــ ٢٨٦ : النَّشَاسْتَج : «ضيعة أو نهر بالكوفة كانت لطلحة بن عبيدالله التَّيمي . وكانت عظيمة كثيرة الدَّخل» .

(٥٠) راجع : أبو عبيد القاسم بن سلام ، كتاب الأموال ، تحقيق محمد خليل هراس (القاهرة ، ١٤٠١هـ) ، ص ص ٢٧١ ــ ٢٧٦ ؛ السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ٣ ، ص ص ١٠٨٢ ــ ١٠٨٣ ؛ السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ص ٨٠ ــ ٨٣ .

بعده . وعندما جاء بنو أمية زادوا فيه أضعاف ما حَمى الرسول ﷺ ، وخلفاؤه(٥١) . وقد حملهم على هذا أن إبل الصدقة قد زادت ، وكذلك الخيْل الموقوفة للجهاد في سبيل الله . وكان يتولى الإشراف على أرض الحمى عامل من قبل الخليفة أو الوالي ، يعرف بـ « عامل الحِمى » . ولما كان أمر الحِمى عند الولاة عظيما ، لذا « كانوا يستعملون عاملا وحده ، وكانت إصابته فيه عظيمة ، وكان لحوّاطه سلطان عظيم ، وحُوّاط كل ناحية : سادة القوم وأشرافهم . وكان يقال لعامل الحِمى : عامل الشَّرَف »(٥٢) .

وهكذا ، يتبين لنا مما سبق ذكره ، أن كثيرا من أراضي المدينة وأعراضها قد أصبح الولاة في عهد بني أمية يشرفون عليها إشرافا مباشرا . إذ إنهم كانوا يَجمعون ما تُنتجه هذه الأراضي ويَردُّونه إلى بيت مال المسلمين إذا كانت من أرض الصوافي . وأما إذا كانت الأرض يملكها الخليفة أو أحد ولاته ، ففي هذه الحالة تعود حريةالتصرف إلى مالكها . فإما أن يجري عليها نظام المُزَارَعة ــ أو المُعَاملة ــ : أي أن يُؤَجرها إلى قوم يزرعونها لقاء حصة معينة مما تُخرجه كالثّلث أو الرّبع أو حتى النّصف في بعض الأحيان(٥٣) . وإما أن يُحضر صاحب الأرض عمّالاً وفلاحين يستصلحون الأرض ثمَّ يزرعونها لقاء أجر نَقْدي يَدفعه لهم ، قَلَّ أو كَثُر ، حسب الظروف . ولعلَّ الأراضي التي كان يملكها معاوية وآله مِنْ بعده في المدينة وأعراضها كانت تُدار بإحدى الطريقتين سالفتي الذكر(٥٤) .

ومن الجائز أن يكون الناس قد مَرّوا بفترات عصيبة ، كَتَعرّض المحاصيل للآفات مثل هجوم الجَرَاد ، أو الجَدْب ، أو انخفاض الأسعار على مراحل متقاربة مما أدى إلى قلّة الإنتاج ، وبالتالي عَجز الزّراع عن دفع ما هو مُستحق عليهم(٥٥) . فلذلك تحركوا ضد الوالي أو وكيله . وتعطينا المصادر التاريخية مثالا يكاد يكون مشابهاً لهذه الحالة . إذ يروي السَّمهودي أن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كان أول من حَمى الحِمى بِضَرِية(٥٦) . ثم كثرت إبل الصدقة . فاشترى عثمان ، رضي الله عنه ، أراضي في عَين بني ضُبَيْعَة حول ضَرِيَّة ، وجعَلها حِمى ، وفيها مياه لبني غنيّ «ثم لم تزل الولاة تزيد فيه ، واتخذوه مأكلة ، ومن أشدّهم فيه انبساطاً ومنعاً إبراهيم بن هشام المخزومي(٥٧) ، زاد فيه ، وضيق على أهله ،

---

(٥١) السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ٢ ، ص ص ٧٣٠ ــ ٧٣١ ؛ ٧٤٨ ــ ٧٤٩ ؛ جـ ٣ ، ص ١٠٨٥ .

(٥٢) السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ٣ ، ص ١٠٩٨ .

(٥٣) راجع : البخاري ، صحيح البخاري ، جـ ٣ ، ص ص ٦٨ ــ ٦٩ (باب المزارعة بالشطر ونحوه) حيث يشير إلى أن هذا النظام كان معمولا به منذ عهد علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، ثم إن عمر بن عبدالعزيز وآل أبي بكر وآل عمر وآل الزبير قد تمشوا بموجبه .

(٥٤) انظر الحالات المشابهة لذلك في صحيح البخاري ، جـ ٣ ، ص ص ٦٩ ــ ٧٣ ؛ السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ٧٤ .

(٥٥) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة ، انظر : السيف، الحياة الاقتصادية ، ص ص ٧٢ ــ ٧٤ .

(٥٦) ضريَّة : وهي قرية عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة من نجد . (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ص ٤٥٦ ــ ٤٥٨) .

(٥٧) كان واليا على المدينة لهشام بن عبدالملك بن مروان في سنة ١٠٦هـ/٧٢٤م .

واتخذ فيه من كل لون من ألوان الإبل ألف بعير ، ولم تزل حُوَّاط الحِمى يقاتلون عليه أشدّ القتال ، ويكون فيه الدماء . وقاتل مرّة حُوّاط ابن هشام ورُعيان أهل المدينة وهم أكثر من مائتي رجل ناساً من غني على ماء لغني ، يقال له السَّاه ، قتالا شديدا ، فظفر الغَنَويون ، فقتلوا منهم اثنى عشر رجلا ، ثم صالحهوم على العَقْل(٥٨) ، لكل واحد مائة من الإبل »(٥٩) .

وبناء على ذلك ، فإنه يمكننا القول إنه طالما تزوّدنا الكتب التاريخية بأمثلة على اقتتال الناس على أرض الحِمى ، فلا غَرابَة إذن إذا كان أهل المدينة وممثلو السلطة المركزية قد حارب بعضهم البعض على الأراضي التي يملكها الخليفة أو الوالي ، أو حتى على أرض الصوافي . هذا إذا ما أضفنا إلى ذلك غلاء الأسعار عند أهل المدينة بحيث بيع مدّ الحِنْطَة عندهم بدرهمين ، وهو سعر مرتفع جداً إذا قارنّاه بما كان عليه عند أهل الشام ، حيث كان سَبعة أصواع (والصَّاع أربعة أمداد) بدرهم . ولعلَّ يزيد شَعَر بضيق أهل المدينة من ذلك . فوعَدهم (قبل وقعة الحَرَّة) بأن يجعل سعر الحنطة عندهم مساوياً لما هو عليه في بلاد الشام(٦٠) . ولكن سرعة تتابع أحداث الوَقعة لم تترك مجالاً للتعرّف على مدى ما خلَّفه مثل هذا الوعد من آثار .

أما عن تتابع الأحداث التي سبقت وقعة الحَرَّة ، والاحتياطات التي اتخذها كل طرف للوقوف في وجه الطرف الآخر ، فإن المصادر التاريخية تُشير إلى أن أهل المدينة قد استمرّوا في عصيانهم ، وطردوا عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، كما أخرجوا معه آل مروان من بني أمية وفيهم مروان بن الحكم وابنه عبدالملك(٦١) . فلمَّا سمع يزيد بذلك ، استعد للأمر . ونَدب حوالي « خمسة آلاف رجل : من فلسطين ألف رجل عليهم رَوح بن زِنْباع الجُذَامي ، ومن الأردن ألف رجل عليهم حُبَيْش بن دلجَة القَيْني ، ومن دمشق ألف رجل عليهم عبدالله بن مَسْعَدة الفَزَاري ، ومن أهل حمص ألف رجل عليهم الحُصَين بن نُمَير السَّكوني ، ومن قِنسرين ألف رجل عليهم زُفَر بن الحارث الكِلابي »(٦٢) . أما القيادة العامة لذلك الجيش فكانت لمسلم بن عُقبة المُرّي ، يساعده فيها الحُصَين بن نُمَير السَّكوني . وأما بالنسبة لتجهيزات الجيش ، فإضافة إلى أنهم كانوا « على خَيل عِرابٍ ، وسِلاح شاكٍ ، وأداةٍ

(٥٨) « العَقْل : الدِّيَةُ ، قال الأصمعي : إنما سمّيت بذلك لأن الإبل كانت تُعْقَل بفناء ولي المَقتول ، ثم كثُر استعمالُهم هذا الحرف ، حتى قالوا : عَقَلْتُ المقتول ، إذا أعطيت دِيَته دراهم أو دنانير » . (الجوهري ، الصحاح ، جـ ٥ ، ص ١٧٦٩) .

(٥٩) السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ٣ ، ص ص ١٠٩٢ ــ ١٠٩٨ .

(٦٠) انظر : البيهقي ، المحاسن والمساوىء ، ص ٦٥ ؛ السيف ، الحياة الاقتصادية ، ص ص ١٢٨ ــ ١٢٩ .

(٦١) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٠٥ ؛ ابن عبد ربّه ، العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٢٩ ؛ أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ١٧٤ .

(٦٢) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥١ . بينا يشير البلاذري إلى أن عدد الجيش كان «اثنا عشر ألفاً» لكنه رقم تبدو المبالغة واضحة فيه . (أنساب الأشراف ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٢٢) ، وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٢١٨ .

كاملة »[٦٣] ، فإن يزيد بن معاوية أعطى كل فرد منهم عطاءه السنوي كاملا ، إضافة إلى مائة دينار نقداً[٦٤] ، ليتجهز ويُجَهِّز أهله بها . وكانت هذه أول مهمة لجند أهل الشام ، ضد رعايا الدولة نفسها[٦٥] .

وكان ممّا أوصى به يزيد بن معاوية مسلم بن عُقبة المُرّي ــ أمير الجيش ــ أن يمضي بمن معه إلى المدينة ، فإذا وصل إلى هناك ، فإنَّ عليه أن يرفق بالناس ، ويَدعوهم بطريقة سلمية للدخول في الطاعة ، واجتناب الفرقة. فإن استجابوا له فَليَعرض عنهم وليَمض إلى ابن الزُّبَير في مكة . ولكن إذا لم يُوافقوا على مطالبه ، وآثروا الصِّدام معه ، فعليه أن يعيدهم إلى صفوف الجماعة الإسلامية ولو أدى ذلك إلى استعمال القوة[٦٦] . ومثل هذه الروايات تبيِّن لنا ــ فعلاً ــ أن يزيد لم يكن يميل إلى استعمال الشِّدة والعُنف مع أهل المدينة لولا أن اضطروه هُم إلى ذلك . وتدل هذه الروايات أيضا على أن وِجْهَة جيش يزيد الأساسية لم تكُن المدينة ؛ وإنما كان مُوجَّها بالدرجة الأولى إلى عبدالله بن الزبير الذي كان قد اعتصم بمكة وامتنع صراحة عن إعطاء البيعة له . وقد عَبَّر يزيد عن موقفه هذا في خلال حديث له مع عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ، إذ طلب منه عبدالله أن يَرفق بأهل المدينة ولا يُرسل لهم جيشا ، فقال له يزيد : « فأنا أبعث أول جيش ، وآمُرهم أن يَمُرّوا بالمدينة إلى ابن الزبير ، فإنه قد نَصَب لنا الحرب ، ويَجعلونها طريقاً ، ولا يُقاتلهم . فإن أقر أهل المدينة بالسَّمع والطاعة ، تَركَهم وجَاز إلى ابن الزبير ، وإن أبوا أن يقروا قاتلهم »[٦٧] . وما إن بلَّغ عبدالله بن جعفر كلام يزيد هذا إلى أهل المدينة ، وحثَّهم على لزوم الطاعة والجماعة ، حتى رفضوه ، وقالوا : « لا يَدخلها علينا ، أبدا »[٦٨] .

ومضى أهل المدينة في استعداداتهم لملاقاة جيش يزيد . فتشير الروايات التاريخية إلى أن أهل المدينة أعادوا حَفْر الخَنْدَق الذي سَبق أن حفَره رسول الله ﷺ ، حول المدينة إبّان غزوة الأحزاب سنة ٥هـ/٦٢٧م وعمقوه . وقد استغرقت هذه العملية من أهل المدينة حوالي خمسة عشر يوماً[٦٩] . وتدلّنا التحصينات الأخرى التي اتخذها أهل المدينة على أن المدينة نفسها قد اتسعت عما كانت عليه من

---

(٦٣) كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

(٦٤) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٢٢ ؛ وانظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٢١٨ «وقيل أربعة دنانير» .

(٦٥) كان جند الشام يُرسَلون عادة للإغارة على البيزنطيين في البَر والبحر . أما فيما يتعلق بقمع حركات التمرد في الأقاليم ، فكان الخلفاء يتركون للولاة حرية التصرف في اختيار أيسر السُّبل للوقوف في وجهها . وكان الولاة نادراً ما يضطرون لطلب المساعدة من الخليفة بدمشق .

(٦٦) كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ ١ ، ص ١٧٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٢١٩ .

(٦٧) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٥ ، ص ١٤٥ .

(٦٨) ابن سعد ، المصدر السابق والصفحة ؛ وانظر : البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٢٤ .

(٦٩) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٤١٢ ــ ٤١٣ ؛ السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ١ ، ص ١٢٩ .

قبل . ولهذا لم يعد الخَندق كافياً كخط دفاعي عنها ولذلك تمركزت قوة من أهل المدينة بقيادة عبدالله بن مُطيع العَدوي في ناحية ذِئاب(٧٠) . وتحصّنت فرقة أخرى بقيادة عبدالله بن حَنْظَلة الأوسي الأنصاري في ناحية الصَّوْرى(٧١) . أما القوة الثالثة فأخذت أماكنها في ناحية بُطْحَان(٧٢) وكانت بقيادة عبدالرحمن بن أبي ربيعة المخزومي(٧٣) . وكان في القوةّ المدافعة عن المدينة شخصيات بارزة من أبناء المهاجرين والأنصار ، أمثال : إبراهيم بن نُعَيم بن عبدالله النَّحَّام ، ومحمد بن عمرو بن حَزْم الأنصاري — من بني النَّجار — ومحمد بن سعد بن أبي وقاص ، ومحمد بن أبي جَهم بن حُذَيْفَة العدوي ، ومَعقل بن سِنَان الأشجعي(٧٤) .

أما القيادة العامة ، فإن الروايات التاريخية تؤكد بأن خلافاً قد وقع بين أهل المدينة حيالها . فكان أن أمّروا عليهم اثنين من زعمائهم هما : عبدالله بن مطيع العَدوي على قريش ، وعبدالله بن حَنْظَلة الأنصاري على الأنصار . وقد عَبَّر عبدالله بن عبَّاس ، الذي كان في الطائف مُعتزلا كلا الفريقين(٧٥) ، عن دهشته لهذا الأمر ، فقال : « أميران ! هَلكَ القَوم »(٧٦) . وكاد أن يكون هذا الاختلاف أول وهن على أهل المدينة ، لولا أنهم تداركوا أمرهم ، وولّوا عليهم عبدالله بن حَنْظلة الأنصاري(٧٧) .

وما أن وَصل مسلم بن عُقبة المُرّي ، بقواته ، إلى وادي القرى ، حتى التقى بمروان بن الحَكم ومن معه مِنْ بني أمية المُبعَدين عن المدينة . فاجتمعوا ، وتدارسوا الموقف مع بعضهم البعض ، ثم مَضوا جميعهم في زحفهم تجاه المدينة(٧٨) . وتشير بعض المصادر التاريخية إلى أن أهل المدينة عندما أخرجوا بني أمية منها ، كانوا قد أخذوا عليهم العهود والمواثيق بأن لا يَدلّوا جيش الشام على تحصينات أهل المدينة وأن لا يُناصروهم عليهم(٧٩) . ولكن مثل هذه الروايات تبدو ضعيفة وبدون أساس إذ كيف لا يتعاون أموي

---

(٧٠) ذِئاب : وادٍ لبني مُرَّة بن عوف . وذَنَابة الوادي : الموضع الذي ينتهي إليه مَسيله . (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٧)

(٧١) الصَّوْرى : موضع أو ماء قرب المدينة . (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٤٣٢) .

(٧٢) بُطْحَان : واد بالمدينة يهبط من حَرَّة هناك تنصب منها مياه عذبة ، فاتخذ بها بنو النضير الحدائق والآطام ، وأقاموا بها إلى أن غزاهم النبي ﷺ ، وأخرجهم منها . (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٤٤٦) .

(٧٣) أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ١٧٦ .

(٧٤) انظر : ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٥ ، ص ١٤٥ ؛ ابن خياط ، كتاب التاريخ ، ص ص ٢٣٦ — ٢٣٧ ؛ أبو العرب التميمي ، كتاب المِحَن ، ص ص ١٧٣ — ١٨٣ .

(٧٥) ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، جـ ٧ ، ص ٣٧٧ ؛ ابن طولون : قيد الشريد ، ص ٤٤ .

(٧٦) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٢٩ ؛ ابن عساكر ، تهذيب تاريخ دمشق ، جـ ٧ ، ص ٣٧٧ .

(٧٧) ابن خياط ، تاريخ ، ص ٢٣٧ ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥١ ؛ البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٢٣٤ .

(٧٨) الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٤٠٥ — ٤٠٦ .

(٧٩) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٢٢ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤١٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٢١٩ . قارن : ابن سعد ، الطبقات جـ ٥ ، ص ص ٣٨ — ٣٩ .

كان قد حوصر ثم أُبعد ، مع الجيش الأموي الذي جاء منقذاً له ، ومعيناً إياه على البقاء في منازله ؟!

وعندما وصل مسلم إلى المدينة ، وعسكر بقواته في حَرّة واقِم[٨٠] (في الشمال الشرقي للمدينة) ، أخذ يُراسل أهل المدينة ويُعرّفهم بمهمّته . ويَطلب منهم إظهار الطاعة ولزوم الجماعة. وأعطاهم مُهلة ثلاثة أيام[٨١] يُراجعون فيها أنفسهم ، وذلك بناء على أوامر يَزيد المُسْبَقة له ، لكن محاولات اللين والمهادنة لم تُؤد إلى النتيجة المَرجُوّة . إذ يشير البلاذري إلى أن أهل المدينة رفضوا تَوسُّلات مسلم بن عقبة المتكررة لهم ، وقالوا : « بَلْ نُحارب . ثم نُحارب »[٨٢] .

وإزاء إصرار أهل المدينة المتزايد بعدم الإذعان لمطلب مسلم بن عقبة ، اضطر الأخير لأن يفرض حول المدينة حصاراً وذلك في محاولة منه لإجبار أهل المدينة على الاستسلام ، فوزَّع قواته على نواحيها المختلفة . فأرسل الحُصَين بن نُمَير السَّكوني ناحية ذِبَاب وما والاها ، وحُبَيش بن دلجَة القَيْني ومن معه من الموالي ناحية بني سَلَمَة بن سعد من الخَزرج ، ووجَّه عبدالله بن مَسْعَدة الفَزَاري ناحية بَقيع الغَرْقَد ، وتمركز مسلم ـــ بمن معه ـــ ناحية بني حارثة[٨٣] .

وتروي المصادر التاريخية أن مروان بن الحكم تمكَّن من اصطناع أحد أفراد بني الحارث بن الخزرج فدلَّه على ثَغْرَة من ناحيتهم[٨٤] . فدخل مروان ومعه مائة فارس[٨٥] ، ثم تبعه مسلم بن عُقبة بقواته ، فدخلوا المدينة من تلك الجهة أيضا . وما أن سمع قادة الخطوط الدفاعية الأخرى بما حصل ، حتى تركوا أماكنهم ـــ لأنهم أُخذوا على حين غِرّة[٨٦] ـــ وتوجَّهوا ناحية بني الحارث في محاولة منهم لصدّ زحف قوات مسلم بن عقبة[٨٧] . فاقتتل القوم قتالاً شديداً . ولكن تكاثَر جند الشام على أهل المدينة « فَدُخِلت المدينة من النواحي كلّها »[٨٨] ، وذلك في يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين (٦٨٣م) .

---

(٨٠) حرةواقم : شرق المدينة ، حدثت فيها وقعة الحرّة المشهورة . ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٤٩ .

(٨١) البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٢٤ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤١٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ص ١١٤ ـــ ١١٥ .

(٨٢) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ص ٣٢٥ . وانظر : الطبري ، تاريخ ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤١٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٢١٩ .

(٨٣) كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ ١ ، ص ١٨٦ .

(٨٤) السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ١ ، ص ص ١٢٩ ـــ ١٣٠ .

(٨٥) اليعقوبي ، التاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٠ .

(٨٦) ابن خياط ، التاريخ ، ص ٢٣٨ : « وأقحم عليهم بنو حارثة أهل الشام ، وهم على الجد (أي على وجه الأرض) فانهزم الناس وعبدالله بن حنظلة متساند (أي مستند) إلى بعض بنيه يغط نوما ، فنبَّهه ابنه ، فلما فتح عينيه فرأى ما صنع (أي الناس) أمر أكبر بنيه فتقدم حتى قُتل ...» وانظر : الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٢٤ .

(٨٧) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٥ ، ص ٦٧ .

(٨٨) ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٥ ، ص ٦٥ ؛ السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ١ ، ص ١٣٠ .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مسلم بن عقبة المُرّي قد كافأ بني حارثة على صنيعهم هذا بأن جعَل منزلهم بيت أمان لمن يَقصده . «فكان بنو حارثة آمنين ما قُتل منهم أحد . وكان كلّ من نادى باسم الأمان إلى أحد من قبيلة بني حارثة أمّنوه ، رجلاً كان أو امرأة ، ثم ذبّوا عنه حتى يبلغوه قصر بني حارثة حتى انقضت الثلاث»[٨٩] .

ولكن ، على الرغم من الأمان الذي سبق ذكره ، فإن المصادر التاريخية تشير إلى أن أعداداً كبيرة من القَتلى قد وَقَعت من الطرفين : فَقُتل حوالي سبعين ممّن شهدوا وقعة بَدر . كما قُتل من قريش والأنصار حوالي ثلاثمائة وستة رجال ، ومن باقي الناس أضعاف ذلك[٩٠] .

وبقي مسلم بن عقبة في المدينة عدة أيام ، ثم تَوجّه بعدها إلى مكة ، وجهته الأساسية ، في منتصف المحرّم من سنة أربع وستين هجرية ، وذلك لمجابهة عبدالله بن الزبير هناك ، واستخلف على المدينة روَح بن زَنْبَاع الجُذَامي[٩١] ليشرف على استتباب الأمن والنظام فيها .

وكان من أبرز نتائج هذه الوقعة ، عدا عن تلك الأعداد الهائلة من القتلى ، أن أهل المدينة قد جدّدوا بيعتهم ليزيد بن معاوية ، وعادوا إلى صفوف رعايا الدولة الأموية . كما أسفرت هذه الوقعة عن فقدان كثير من الأشياء المادية والعلمية وحرقها لعل من أبرزها ما كان يملكه عروة بن الزبير من كُتب[٩٢] .

ولعل من واجب الباحث في موضوع وقعة الحَرَّة أن يتناول موضوعاً هاماً جداً ذا علاقة بها ، ألا وهو إجماع كثير من المؤرخين ــ قدماء ومحدثين ــ على أن المدينة قد استُبيحت مدة ثلاثة أيام من قبل جيش الشام بعد تغلّبهم على أهلها[٩٣] . ومما يلفت الانتباه إلى هذه المسألة هو أن أيا من المؤرخين الأولين لم يتصدَّ لدراسة هذه المسألة ، فظلّت وكأن هناك شبه إجماع منهم على إمكانية وقوعها .

أما المؤرخون المحدثون ، فقد استمر معظمهم ، ولأجيال عديدة ، يأخذون ما قدمه لهم أسلافهم

(٨٩) كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ ١ ، ص ١٨٢ .

(٩٠) قارن الروايات المختلفة في العديد من المصادر الأولية . وانظر : البلاذري ، أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ص ٣٣٢ ــ ٣٣٣ ؛ كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، جـ ١ ، ص ١٨٥ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٣٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٢٢١ ؛ السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ١ ، ص ١٢٦ .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلا من خليفة بن خياط (كتاب التاريخ ، ص ص ٢٤٠ ــ ٢٥٠) وأبي العرب التميمي (كتاب المِحَن ، ص ص ١٨٧ ــ ٢٠١) قد أفردا فصلا خاصا في كتبهما أسمياه « تسمية من قُتل يوم الحَرَّة » ، و « تسميه من قُتل بالحرة » . والملاحظ عليهما أنهما أوردا أسماء قتلى أهل المدينة دون قتلى أهل الشام . ولعل هذا مما يقوي رأينا في أن روايات الواقدي كانت عن شاهد عيان على الحادثة نفسها .

(٩١) البلاذري ، أنساب الأشراف، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٣٧ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٢٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٢٣ ؛ السمهودي ، وفاء الوفاء ، جـ ١ ، ص ١٣٦ .

(٩٢) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، جـ ٧ ، ص ١٨٣ .

(٩٣) انظر أيا من المصادر أو المراجع التي ورد ذكرها في التعليقات على هذا البحث .

حول هذه النقطة دون أن يتفكروا فيها ، أو يناقشوا ما قدموه لهم حيالها . وظل الأمر كذلك حتى استنتج المستشرق الألماني يوليوس فِلْهَاوْزِن (ت ١٩١٨م) من دراسته للروايات الأولية التي تحدثت عن دخول جيش الشام للمدينة ، بعدم إمكانية وقوع الاستباحة[٩٤] . وشرح فلهاوزن كيفية توصله لهذا الرأي فبيَّن أن أول رواية وردت بهذا الشأن كانت على لسان أبي مِخْنَف لوط بن يحيى الأزدي (ت١٥٧هـ/٧٧٣م) وهي تتضمن أوامر من يزيد إلى مسلم بن عقبة ، منها : « فإذا ظفرت عليهم فأبحها ثلاثاً ، فما فيها من مال أو رقة (دراهم) أو سلاح أو طعام فهو للجند ، فإذا مضت الثلاث ، فاكفف عن الناس ...»[٩٥] .

ويقارن فلهاوزن بين رواية أبي مخنف هذه ، وبين روايات أخرى لرواة ثقات مثل : عوانة بن الحكم الكلبي (ت ١٤٧هـ/٧٦٤م) ووهب بن جرير (ت ٢٠٦هـ/٨٢١م) اللذين تحدثا عن وقعة الحرَّة لكنه لم يرد في رواياتهما ما يشير إلى الاستباحة . إذ يقول وهب في روايته : « دخل مسلم بن عقبة المدينة ، ودعا الناس للبيعة »[٩٦] . بينما يشير عوانة إلى ذلك ، بقوله : « دعا الناس مسلم بن عقبة بقباء إلى البيعة »[٩٧] . واختتم فلْهاوزن دراسته بالتعليق على هذه الروايات ، بقوله : « وهذا الذي فعله مسلم في اليوم التالي للمعركة (إن مسلماً دعا الناس إلى البيعة وأرغم كبار أهل المدينة على البيعة في قُباء ، وقتل بعض الرجال رغم معارضة مروان بن الحكم في هذا القتل) لا يتفق مع القول بإباحته المدينة ثلاثة أيام للجند ، ينهبون فيها ويقتلون . ومن العسير جداً أن يجد القول بإسلام المدينة للنهب ما يؤيده فيما يحكيه السمهودي من أنه نشأ عن ذلك ألف مولود غير شرعي[٩٨] . ولا يعرف وهب بن جرير شيئا عن إسلام المدينة للنهب »[٩٩] .

ورغم أن فلهاوزن قد نشر آراءه تلك في سنة ١٩٠٢م في كتابه تاريخ الدولة العربية (باللغة الألمانية أولاً ثم ترجم الكتاب إلى العربية في سنة ١٩٥٨م) إلا أن الدكتور نبيه عاقل[١٠٠] تبعه بعد ذلك بسبعين سنة فنشر كتابا بعنوان « تاريخ خلافة بني أمية » ادعى فيه أنه توصل من خلال دراسته للروايات التاريخية عن الحادثة إلى شكّه في حدوث الاستباحة . إذ يقول في خاتمة كلامه : « ونستطيع القول إن ما تشير إليه بعض المصادر الحديثة من استباحة مسلم للمدينة لا ينطبق تمام الانطباق على

---

(٩٤) هذا على قدر ما توصلت له خلال دراستي عن هذه الحادثة . وإذا كان هناك من سبق فلهاوزن في هذا الأمر ، فلا أستطيع الحكم على ذلك حتى الآن .

(٩٥) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ترجمة محمد أبو ريده ، القاهرة ١٩٥٨م ، ص ١٥٤ ؛ وانظر أصل الرواية في كتاب تاريخ الطبري ، جـ ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٩٦) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ١٥٥ ؛ وانظر أصل الرواية في تاريخ الطبري ، جـ ٢ ، ص ٤١٨ .

(٩٧) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ١٥٥ ؛ وانظر أصل الرواية في تاريخ الطبري ، جـ ٢ ، ص ٤١٨ .

(٩٨) السمهودي : وفاء الوفاء ، جـ ١ ، ص ١٣٤ ؛ فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ١٥٤ .

(٩٩) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، ص ص ١٥٤ ــ ١٥٥ .

(١٠٠)نشر دار الفكر بدمشق ١٩٧٢م .

واقع ما جرى ، وأن مسلماً لم يستبح المدينة على أغلب الظن »[101] .

ولكن بمقارنة ما كتبه كلا الباحِثَيْن ، بعضه مع بعض ، نجد أمرين هامين جداً ، أولهما : أن الدكتور نبيه عاقل تجاهل تماماً الرأي الذي سبق أن توصل إليه يوليوس فلهاوزن وهو عدم إمكانية وقوع الاستباحة. كما أنه لم يشر إليه في دراسته على أنه (أي فلهاوزن) كان أحد الذين تناولوا وقعة الحرّة في دراساتهم . وثانيهما : أن الدكتور نبيه عاقل شرح وحلّل وأصدر أحكامه وتوصل إلى نتائجه مستنداً على الروايات الثلاث نفسها التي سبق يوليوس فِلْهاوزن أن قام بدراستها وتحليلها . وظن الدكتور نبيه عاقل أنه بتجاهله لجهود من سبقوه رغم اطلاعه على كتاباتهم[102] سيوهم القارىء بأن التحليل تحليله ، والنتائج نتائجه !![103] . ثم إن قوله بأن الاستباحة مما أشارت إليه المصادر الحديثة ، قول لا ينطبق على الواقع لأنه تجاهل رواية أبي مخنف آنفة الذكر ، وهي رواية قديمة جداً ، قدم أبي مخنف نفسه (ت ١٥٧هـ/٧٧٣م) .

وإنني من جانبي ، أؤكد مشاركتي فلهاوزن وغيره في شكوكهم في أمر الاستباحة . كما وأنني لا أؤيد ما ذهب إليه كل من اليعقوبي والسّمهودي وابن الطقْطقا[104] في آرائهم حول طريقة الاستباحة [مثل السَّبي وهتك الأعراض والمواليد غير الشرعيِّين] إذ إن آراءهم هذه كبيرة في مدلولها ، ولا يمكن الأخذ بها والركون إليها . فلا يمكن أن يتصوَّر المرء أن يقوم جند المسلمين بتنفيذ مثل تلك الأمور في بنات إخوانهم المسلمين أيضاً . خاصة وأنه عاش في بلاد الشام والحجاز في النصف الثاني من القرن الأوَّل الهجري عدد من الصحابة والتابعين[105] الذين لا يُمكن أن تصدر منهم أو من أبنائهم مثل تلك التصرفات .

---

(١٠١)عاقل : تاريخ خلافة بني أمية ، ص ١١٢ .

(١٠٢)انظر الصفحات رقم ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٤ من كتاب خلافة بني أمية . فهي تدل على أن الدكتور نبيه عاقل قد اطلع على كتاب فلهاوزن إلّا أنه تجاهله وقت الأهمية .

(١٠٣) ما ذكرناه عن الدكتور نبيه عاقل ينطبق على استنتاجات الدكتور حمد العرينان في مقالته (إباحة المدينة وحريق الكعبة في عهد يزيد بن معاوية بين المصادر القديمة والحديثة) التي نشرت في مجلة كلية الآداب بجامعة الملك سعود عدد (٥) لسنة ١٣٩٨هـ ص ٧٩ ــ ٩٩ . ومن الجدير بالذكر أن هذه المقالة قد أعيد نشرها في كُتيب بنفس العنوان (دار مكتبة ابن تيمية بالكويت ، ١٤٠٣هـ) ، وكان الأجدى أن يقوم المؤلف بتصحيح ما ادعاه لنفسه من نتائج .

(١٠٤)اليعقوبي : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥٠ ؛ ابن الطقطقا : الفخري ، ص ٨٧ ؛ السمهودي : وفاء الوفاء، جـ ١ ، ص ١٣٤ .

(١٠٥)راجع ، السيف : الحياة الاقتصادية ، ص ٢٤٩ .

(٣) موقف عبدالله بن الزبير في مكة (٦٤هـ/٦٨٤م) :

تشير الروايات التاريخية إلى أن عبدالله بن الزبير قد عارض معاوية في توليته ولاية العهد ليزيد ابنه. وكان مما قاله له، وظل مصراً عليه إلى الآخر : « إن رسول الله ﷺ قبض، فترك الناس إلى كتاب الله، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر، ثم رأى أن يستخلف عمر، وهو أقصى قريش منه نسباً، ورأى عمر أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين، وفي المسلمين ابنه عبدالله، وهو خير من ابنك، فإن شئت أن تَدع الناس على ما تركهم رسول الله فيختارون لأنفسهم، وإن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خير من يعلم، وإن شئت تصنع مثل ما صَنع عمر، تختار رهطاً من المسلمين، وتزويها عن ابنك، فافعل »[١].

وظل معاوية متخوفاً على ولده من مواقف عبدالله بن الزبير. ولهذا فقد جاء في آخر وصاياه لولده أن يَنْتَبه ويتخذ جانب الحَذر منه. كما نصحه في أن يتشدّد معه، ومما قاله له : « ... وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب. فإن أمكنته فرصة وثَبَ، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بكَ فَظفرتَ به، فَقَطِّعه إرْباً إرْباً. إلّا أن يلتمس منك صُلْحاً، فإن فَعل فاقبل منه، واحقن دماء قومك بِجُهْدُك وكُفّ عادِيَتهم بِنَوالك، وتَغَمَّدْهم بُحلْمك »[٢].

وما كان معاوية قد تخوف منه، حصل مع يزيد. إذ ما أن تسلّم يزيد الخلافة حتى أرسل إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان (واليه على المدينة) يطلب منه أخذ البيعة له من ابن الزبير. لكن ابن الزبير امتنع عن ذلك. وكان رأيه في يزيد أنه : « يزيد الخمور، ويزيد الفجور، ويزيد الفهود، ويزيد القرود، ويزيد الكلاب، ويزيد النشوات، ويزيد الفلوات »[٣].

ظل ابن الزبير متمنعاً عن إعطاء بيعته إلى يزيد. وغادر المدينة (عن طريق الفُرع) إلى مكة مصحوباً بأخيه جعفر «ليس معهما ثالث»[٤]. وذلك لثلاث ليال بقين من شهر رجب سنة ٦٠هـ/٦٨٠م[٥].

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، جـ ١، ص ١٦٣ ؛ ابن الأثير، الكامل، جـ ٣، ص ٥١٠ ؛ وانظر، الجاحظ : البيان والتبيين، جـ ٤، ص ٩١.

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال، ص ٢٢٦ ؛ الطبري : تيخ، جـ ٢، ص١٩٧ ؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ ٥، ص ١١٥؛ وانظر الجاحظ : البيان والتبيين، جـ ٢، ص١٣١.

(٣) البلاذري : أنساب الأشراف، جـ ٤، قسم ١، ص ٣١٩. وانظر، الجاحظ : البيان والتبيين، جـ ٢، ص ١٢٣ ؛ ابن قتيبة : عيون الأخبار، مجلد ١، جـ ٥، ص ٢٤٩ ؛ نايف معروف : ديوان الخوارج، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٢٨٤. راجع، صفحة (٧، ٥٧) من هذا الكتاب.
هذا، وقد وُصف عبدالله بن الزبير من قِبل والدته أسماء بنت أبي بكر (رض) بأنه (كان صَواماً قَوّاماً وَصُولاً). ابن الأثير : أُسد الغابة، جـ ٣، ص ٢٤٤.

(٤) الطبري : تاريخ، جـ ٢، ص ٢١٩ ــ ٢٢٠.

فبعث الوليد مجموعة من موالي بني أمية في طلبه لكنهم لم يلحقوه[٦] .

وعندما وصل إلى مكة ، أقام ابن الزبير بجوار البيت الحرام « متحرزاً متمنعاً »[٧] حتى لقّب لطول مكوثه في المسجد بـ « العائذ بالبيت »[٨] . وكان يقول للناس : « إني في الطاعة ، غير أني لا أبايع أحداً ، وأنا مستجير بالبيت الحرام »[٩] .

ولعل ابن الزبير كان يطمح أن يدعو لنفسه بالخلافة ، لكنه ما كان ليقدم على ذلك نظراً لقدوم الحسين بن علي (رض) إلى مكة رافضاً ــ هو الآخر ــ إعطاء البيعة ليزيد . وهكذا اجتمعت في مكة أكبر شخصيّتين[١٠] وأهمها في المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت . وتبيّن المصادر التاريخية أن وجود الحسين (رض) في مكة ، كان يقف عائقاً يمنع ابن الزبير من بثّ دعوته وطلب البيعة لنفسه . وتقول في ذلك : « ولم يكن شيء أثقل [على ابن الزبير] من مكان الحسين بالحجاز ، ولا أحب إليه من خروجه إلى العراق طمعاً في الوثوب بالحجاز ، علماً بأن ذلك لا يتم إلّا بعد خروج الحسين »[١١] . فقد كان الحسين « أعظم في أعينهم وأنفسهم منه ، وأطوع في الناس منه »[١٢] .

وتشير المصادر التاريخية أيضا إلى أن ابن الزبير كان يحث الحسين (وقد كان يزوره مرة في كل يومين أو ثلاثة أيام)[١٣] على مناهضة بني أمية ، ويقول له : « ما أدري ما تركنا هؤلاء القوم ، وكفّنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين وولاة هذا الأمر دونهم »[١٤] . وعلاوة على ذلك ، فإن عبدالله بن الزبير كان على اطلاع بمراسلات الجماعة الموالية لآل علي (رض) مع الحسين بن علي (رض) يستحثونه للقدوم عليهم .

---

(٥) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٠٠ .

(٦) المصدر السابق والصفحة ؛ الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ٢٢٨ « فوجّه في إثره حبيب ابن كُرَيْن في ثلاثين فارساً ، فلم يَقَعُوا له على أثر » .

(٧) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤١٠ .

(٨) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٢٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٧ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب ، جـ ٥ ، ص ٢١٤ .

(٩) الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ٢٦٢ .

(١٠) كان هناك عبدالله بن عمر (رض) لكنه لم ير رأي صاحبيه في مناهضة بني أمية . ويؤثر عنه أنه نصح الحسين وابن الزبير أن يبايعا ليزيد «ولا يفرقا جماعة المسلمين » [ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٧] . كما أنه كان قد قال للذين سألوه عن المبايعة ليزيد : « إذا بايع الناس بايعت » . وقد فعل . [البلاذري : أنساب الأشراف، ج ٤ قسم ١ ، ص ٣٠١] .

(١١) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٣٣ ؛ المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٦٥ ؛ أبو الفرج الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ، ص ١٠٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣٨ .

(١٢) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٠١ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٣٣ .

(١٣) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٠١ .

(١٤) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٧٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣٨ .

فيروى أن الحسين قال مرة لابن الزبير : « والله لقد حدَّثت نفسي بإتيان الكوفة ، فإن شيعتي بها ، وأشراف أهلها قد كتبوا إليّ في القدوم عليهم ، واستخير الله »[١٥] . وعند ذلك قال ابن الزبير للحسين : « فوالله لو أن لي مثلهم ، لذهبت إليهم »[١٦] . ويروي البلاذري أن عبدالله بن الزبير قد «خشي أن يتهمه [الحسين ، فنصحه بقوله] : « إنك لو أقمت بالحجاز ثم أردت الأمر ها هُنا ما خُولِف عليك إن شاء الله »[١٧] .

وعلى أية حال ، إن فكرة ابن الزبير كانت واضحة لرجالات الحسين . فهذا عبدالله بن عباس (رض) .وقد أعيته جهوده في منع الحسين من الذهاب إلى الكوفة ، يميل إلى ابن الزبير ، ويقول له : « قَرَّت عينك يا ابن الزبير ، هذا حسين يخرج إلى العراق ، ويخلّي لك الحجاز »[١٨] . كما أن أمْر ابن الزبير لم يكن خافياً على الحسين نفسه . إذ قال مرة لمن حوله : « إن هذا ليس شيء من الدنيا أحبّ إليه من أن أخرج من الحجاز ، وقد علم أن الناس لا يعدلونه بي ، فودُّ أنّي خرجت حتى يخلو له الجوّ »[١٩] .

وقد خلا ذلك الجو فعلاً بعد مغادرة الحسين (رض) مكة ومقتله في كربلاء (١٠ محرم ٦١هـ الموافق ١٠ تشرين الأول ٦٨٠م) . إذْ أصبح ابن الزبير سيّد الموقف في مكة . وتروي المصادر التاريخية أن ابن الزبير قام في الناس خطيباً ، إثر مقتل الحسين (رض) ، فعظَّم مقتله ، وحرَّض الناس على يزيد وأهله ، وقال : « أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ، ونقبل لهم عهداً ..! . لا ولا نراهم لذلك أهلاً »[٢٠] . كما أنه تحدث عن تلك الجماعات التي وعدت الحسين بالنصرة ثم خذلته . وقاله فيهم : « لعمري لقد كان في خذلانهم إياه ، وعصيانهم له واعظٌ وناه عنهم ، ولكن ما حمٌّ نازل »[٢١] .

ثم أخذ ابن الزبير يقوّي مركزه . وبدأ يستقطب رجالات القبائل حوله ليضمن مساندتهم . فقدم عليه ثمانون من أهل اليمامة فيهم نجدة بن عامر الحَنفي وأبو طالوت سالم بن مَطر من بني مازن ، وقدم عليه ستة عشر راكباً من خوارج البصرة[٢٢] ، وقدم عليه المختار بن أبي عبيد الثقفي من الكوفة[٢٣] .

---

(١٥) البلاذري : أنساب الأشراف : جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٠١ .

(١٦) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٧٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣٨ .

(١٧) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٠١ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٧٤ .

(١٨) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٧٥ ؛ المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٦٥ .

(١٩) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٧٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣٨ . (وانظر ، الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٢٢٩) .

(٢٠) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٩٥ .

(٢١) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ قسم ١ ، ص ٣٠٤ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٣٩٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٨٤ .

(٢٢) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ص ٣١٧ ، ٣٩٤ ـــ ٣٩٥ .

(٢٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٥ ، ص ٩٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٧٠ .

وانضم إليه أيضاً جماعات من أشراف أهل المدينة[٢٤] . وقد استطاع ابن الزبير أن يتعامل مع مختلف الجماعات رغم اختلاف المواقف والأهواء فيما بينهم . وقيل إن ابن الزبير قد سُئل مرة عن جدوى مساندة هذه الجماعات له . فكان جوابه يتضمن استعداده للتعاون مع أية قوة لمحاربة أهل الشام[٢٥] .

ولما بدأ عبدالله بن الزبير يتقبّل بيعة الناس له سراً على الشورى[٢٦] ، وعرف بذلك عمرو بن سعيد بن العاص (والي المدينة) ، أرسل إليه بعثاً من أهل المدينة قوامه « أربعمائة من الجند» ، وقوم من موالي بني أمية ، وقوم من غير أهل الديوان بقيادة عمرو بن الزبير (أخو عبدالله) . فلما وصل ذي طوى ، راسل عمرو أخاه عبدالله ودعاه لبيعة يزيد . لكن عبدالله رفض ذلك . وأرسل إليه مصعب بن عبدالرحمن بن عوف في جمع كثير من أهل مكة ونواحي الطائف في عدّة وسلاح . وذلك لأن معظمهم كان هواه ، كما يقول البلاذري (عن أبي مخنف) في عبدالله بن الزبير : فاقتتلوا قتالاً شديداً ، هُزم على إثره عمرو وجماعته . وهرب من نجا منهم إلى المدينة . أما عمرو فقد أُسر ، وأُخذ إلى أخيه عبدالله ، فسجَنه في سِجن عَارِم[٢٧] بمكة .

ولما وصلت الأنباء إلى مسامع يزيد ، أرسل إلى ابن الزبير وفداً فيه النعمان بن بشير الأنصاري وهمام بن قبيصة النمري وأوصاهم أن يحاولوا أخذ البيعة له منهم ، وأن يُعلموه أن أحب الأمور إلى نفسه ما فيه السلامة . ولكن ، ما أن قابل الوفد ابن الزبير وأبلغوه رسالة يزيد ، حتى رفض طلبه ، وشَهَّر بيزيد أمامهم . فعاد الوفد إلى يزيد وأخبروه بما تمَّ معهم[٢٨] .

ولم يكتف يزيد بذلك ، بل أرسل مجموعة أخرى من وجهاء أهل الشام يطلبون من ابن الزبير مبايعته . وأمرهم أن يعلمه أنه إنما بعث بهم إليه احتجاجاً عليه واعذاراً إليه وأن يحذروه الفتنة ويعرفوه ما له عنده من البرّ والتكرمة إذا بايع له وأتى إليه . لكن ابن الزبير أبى عليهم ذلك وبسط لسانه فيه ، مرة

---

(٢٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٢٢٥ .

(٢٥) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٤٠ . «قال ابن الزبير : لو أعانتني الشياطين على أهل الشام لقاتلتهم بهم» .

(٢٦) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٩٥ ؛ ابن خياط : التاريخ ، ص ٢٥٨ .

(٢٧) راجع ، البلاذري : أنساب الأشراف، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ؛ الطبري ، تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ ؛ ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١١٩ .

وقد عرف السجن بهذا الاسم نسبة إلى زيد ــ ويقال له عارم ــ غلام مصعب بن عبدالرحمن بن عوف (أو محمد بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي) الذي كان قد أُسر مع عمرو بن الزبير ، فبني له بناء ذراعين في ذراعين وأُقيم فيه ، وكان ذلك البناء في السجن ، فقيل سجن عارم .

(٢٨) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٤٠ ؛ خليفة بن خياط : كتاب التاريخ ، ص ٢٥٢ . يشير إلى أن يزيد قد عرض على ابن الزبير «على أن يجعل له ولاية الحجاز وما شاء وما أحب لأهل بيته من الولاية» في مقابل إعطاءه بيعته له ؛ الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ٢٦٣ .

أخرى أمامهم ، فتركوه ، ورجعوا إلى يزيد بدمشق[٢٩] .

وفي هذا الوقت ، كان مسلم بن عقبةالمري قد ترك المدينة عقب وقعة الحرَّة وتوجه صوب مكة . ولكنه ما أن وصل ثنية المشلَّل[٣٠] ، حتى فاجأه الموت ، إذ كان كبيراً في السّن ، ومريضاً بالسّل[٣١] . وذلك لسبع بقين من المحرم سنة أربع وستين للهجرة . فخلفه الحصين بن نمير السكوني ، في قيادة ذلك الجيش ، بناء على أوامر مسبقة من يزيد[٣٢] .

واصل الحصين زحفه تجاه مكة . حتى إذا وصلها ، ضرب الحصار حولها ، ونزل معسكرة ما بين الحَجُون وبئر ميمون[٣٣] ، وأخذ في تطبيق نصيحة مسلم بن عقبة له . إذ كان قد أوصاه بقوله : « لا تطيلن المقام بمكة فإنها أرض جَرْديَّة لا تحتمل الدواب ، ولا تَمْنع أهل الشام من الحملة . ولا تمكن قريشاً من أُذُنك ، فإنهم قوم خُدُع ، وليكن أمرك الوقاف[٣٤] ثم الثقاف[٣٥] ثم الانصراف » . وقال له أيضاً : « واعلم أنك تقدم على قوم لا منعة لهم ، ولا عدة ، ولا سلاح . ولهم جبال مشرفة عليهم ، فانصب عليهم المجانيق ، فإن عاذوا بالبيت فارْمه ، فما أقدرك على بنائه »[٣٦] . وتمشياً مع هذه النصيحة ، فقد نصب الحصين المَجانيق على جبل أبي قُبَيْس[٣٧] وعلى جبل قُعَيقعان[٣٨] وذلك لأربع بقين من المحرم من سنة أربع وستين .

أما عبدالله بن الزبير فقد أخذ يعدّ عدّته لملاقاة الحصين . فحصَّن نفسه ومن اجتمع إليه من أعوانه في مكة ، ورابط بأصحابه فيما حول المسجد إلى المروة ، وإلى ما وراء ذلك . واتخذ المسجد حصناً .

---

(٢٩) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٠٨ .

(٣٠) المُشَلَّل : وهو جبل يهبط منه إلى قُديد من ناحية البحر . (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ١٣٦) .

(٣١) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٣٤ ويقول في الصفحة ٣٢٨ «وكان بمسلم النَقرس» ويقول في الصفحة ٣٣١ إن يزيد «أصحب مسلم بن عقبة طبيباً» ؛ الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ٢٦٧ «وكانت به الذبحة» . الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ «وكان مسلم مريضاً في بطنه الماء الأصفر» .

(٣٢) الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ٢٦٧ ؛ البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٣٥ ــ ٧ .

(٣٣) البلاذري : أنساب الأشراف : جـ ٤ قسم ١ ، ص ٣٣٩ ؛ وانظر ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ (الحجون : جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها) ، جـ ٥ ، ص ٢٤٥ : بئر ميمون : بمكة .

(٣٤) الوقاف : انظر مادة (وقف) في الصحاح للجوهري ، جـ ٤ ، ص ١٤٤٠ .

(٣٥) الثقاف : ما تُسوى به الرماح . ومنه قول عمرو بن كلثوم :

إذا عضَّ الثّقافُ بها اشمأزَّت ... تَشُجُّ قَفا المثقِّفِ والجَبينا

(الجوهري ، الصحاح ، جـ ٤ ، ص ١٣٤٤) .

(٣٦) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٣٨ ؛ وانظر ، كتاب الإمامة والسياسة ، جـ ٢ ، ص ٩ .

(٣٧) أبو قُبيس : جبل مشرف على مسجد مكة . (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٣٠٨) .

(٣٨) قُعَيْقُعَان : إسم جبل بمكة ... والواقف على قعيقعان يُشرف على الركن العراقي . وسمّي بذلك لأن جُرهم كانت تجعل فيه قسيّها وجعابها ودَرَقها ، فكانت تقعقع فيه . (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٣٧٩) .

فكانت فيه الفساطيط (جمع فسطاط) والخيام[٣٩] . « فكلما جُرح رجل من أصحابه أدخله أحد هذه الخيام لمداواته »[٤٠] . ويروي الفاكهي أن عبدالله بن الزبير قد « ضرب فسطاطاً في المسجد فكان فيه نساء يشفين الجرحى ويُداوينهم ، ويُطعمن الجائع »[٤١] . ويشير البلاذري أن أهل مكة وضعوا مجانيق أو خشباً حول الكعبة ، وجللوها بالجلود لتردّ عن الكعبة[٤٢] . أما ابن عبد ربّه ، فيقول : أُسند [ابن الزبير] ألواحاً من سَاج على البيت ، وألقى عليها الفُرش والقطائف ، فكان إذا وقع عليها الحَجر نَبَا عن البيت ، فكانوا يطوفون تحت تلك الألواح »[٤٣] .

وكان أول قتال فعلي بين الطرفين يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر صفر سنة أربع وستين (٦٨٤م) . فكانوا يترامون بالنبل، ويتشاولون بالرماح ، وأخذ الحصين وأعوانه يضربون البيت بالمجانيق التي نصبوها على جبلي أبي قُبيس وقُعيقعان وفرضوا حصاراً شديداً على عبدالله بن الزبير وأعوانه مدة أربعة وستوين يوماً[٤٤] . ولكن ، وعلى الرغم من طول الحصار وعنف القتال ، إلّا أن عبدالله بن الزبير وجماعته كثيرا ما كانوا يصدّون قوات الحصين ويردونهم إلى الأبطح[٤٥] ، وظل الفريقان على هذه الحال حتى جاءهم نعي يزيد بن معاوية ، فتوقفوا عن القتال .

وقد وقع في أثناء ذلك الحصار أمران هامان جداً . أولهما : حرق الكعبة من جراء النيران التي شبّت في أستارها ، فأتت على معظمها . وثانيهما : وفاة يزيد بن معاوية ، فجأة، مما أحدث إرباكاً لقواته التي تحاصر ابن الزبير .

وبالنسبة لحريق الكعبة ، فقد اختلفت حوله آراء وأهواء المؤرخين ، قدماءهم ومحدَثيهم . فمنهم من يتّهم ابن الزبير وأعوانه فيه[٤٦] ، بحجة أنهم كانوا يعسكرون حولها ، ويوقدون النار ، لاستعمالاتهم

---

(٣٩) ابن الأثير : أُسد الغابة ، جـ ٣ ، ص ٢٤٣ .

(٤٠) خليفة بن خياط : كتاب التاريخ ، ص ٢٥٢ ؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٣٢ .

(٤١) الفاكهي : أخبار مكة ، ص ٤٠١/أ نسخة محققة (غير منشورة)، تحقيق ودراسة فواز بن علي الدهاس ، جامعة إكسنتر (انجلترا) ، ١٩٨٢م .

(٤٢) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٤٣ .

(٤٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٣٢ ؛ كتاب الإمامة والسياسة (المنسوب لابن قتيبة) جـ ٢ ، ص ١١ .

(٤٤) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٢٧ .

(٤٥) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٤٧ . وانظر ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٧٤ : الأبطح : يضاف إلى مكة وإلى منى ، لأن المسافة بينه وبينهما واحدة ، وربما كان إلى منى أقرب ، وهو المحصَّب ، وهو خَيفُ بني كنانة ، قال ابن دريد : الأبطح والبطحاء الرمل المنبسط على وجه الأرض ، وقال أبو زيد : الأبطح : أثرُ المسيل ضيقاً كان أو واسعاً .

(٤٦) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ١٩٦ وما بعدها [باب ما جاء في حريق الكعبة] ؛ البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٤٨ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٢٧ ؛ وانظر ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ، جـ ٢ ، ص ٦٠ ـــ ٦٣ .

الشخصية ، فعلقت النيران من جراء هبوب الرياح الشديدة ، في بعض أستارها ، وسرت إلى أخشابها ، وسقوفها ، فاحترقت . ومن المؤرخين من يعزو ذلك الحريق إلى جيش أهل الشام(٤٧) ، وأنهم البادئون بضرب الكعبة . ويوضح المسعودي ذلك بقوله : « ونصب الحصين فيمن معه من أهل الشام المجانيق والعرادات على مكة ، والمسجد . من الجبال والفجاج ، وابن الزبير في المسجد ... فتواردت أحجار المجانيق والعرادات على البيت ورمى مع الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان ، وغير ذلك من المحرقات ، وانهدمت الكعبة ، واحترقت البنية »(٤٨) . ويشير الأزرقي إلى شدة القصف ، قائلاً : إن الكعبة « كانت ترتج من أعلاها إلى أسفلها »(٤٩) من جراء ضرب الحصين وقواته لها بالمجانيق .

والذي أعتقده . أن كلا الطرفين مسؤولان مسؤلية مباشرة عن تلك الكارثة . لأنهما قد اشتركا فيها ، وليس مما يجدي الباحثين استمرارية إلقاء اللوم على طرف دون الآخر . أما إذا كان لابد من تعيين سبب فعلي لذلك الحريق ، فإنه يمكن إيراد رواية البلاذري التي تقول: « أن جرذاً جرَّ فتيلة فيها نار ، فسقطت في متاع بعض من حول الكعبة فاحترق ، وهاجت ريح حملت الشرر إلى الأستار » !!(٥٠) . وهناك رواية أخرى يوردها ابن فضل الله العمري في سبب الحريق (دون أن يتهم أي طرف) مفادها : « إن امرأة أرادت أن تُجمّر الكعبة . فطارت شرارة من المجمرة في أستارها ، فاحترقت »(٥١) .

وأما بالنسبة لوفاة يزيد بن معاوية المفاجئة في بلدة حُوَّارين(٥٢) (قرب تدمر) ، فقد تسبَّب هذا الأمر في إرباك شديد للحصين بن نمير السكوني وقوات أهل الشام معه . ذلك أن عبدالله بن الزبير قد بدأ ــ إثر سماعه بنبأ وفاة يزيد ــ يدعو لنفسه بالخلافة . بعد أن كان يدعو ، من قبل ، إلى الشورى(٥٣) .

---

(٤٧) خليفة بن خياط : كتاب التاريخ ، ص ٢٥٢ ؛ المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٧١ ، اليعقوبي : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٥١ ؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٣٢ ؛ محمد عبدالحميد مرداد : أشعة الكوكب في حياة الخليفة ابن الزبير وأخيه المصعب ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ص ٢٤، ؛ بليابيف : العرب والإسلام والخلافة العربية ، ص ٢٢٥؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ، جـ ١ ، ص ٢٨٧ ؛ علي حسني الخربوطلي : تاريخ الكعبة ، ص ١٦١ ؛ محمد عبدالقادر أحمد : دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ١٠٢ .

(٤٨) المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٨١ .

(٤٩) الأزرقي : أخبار مكة ، جـ ١ ، ص ١٩٨ .

(٥٠) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٤٨ .

(٥١) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ٩٥ .

(٥٢)الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٢٧ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٣١٦ ــ ٣١٧ .

(٥٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٥ ، ص ١٦٠ ؛ خليفة بن خياط : كتاب التاريخ ، ص ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨ ؛ البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٣٩ ؛ ابن عبدالبر : الاستيعاب ، جـ ٣ ، ص ٩٠٦ ــ ٩٠٧ . ولكن عبدالمنعم ماجد يرى أنه عبدالله بن الزبير دعا لنفسه بالخلافة بعد مقتل الحسين بن علي (رض) (أي في سنة ٦١هـ/٦٨١م) ولكنه ــ بلا شك ــ مخطيء في رأيه . (التاريخ السياسية للدولة العربية ، جـ ٢ ، ص ٨١) .

فاجتمع الحصين مع ابن الزبير في الأبطح بمكة ، وعرض عليه أن يذهب معه إلى دمشق وهناك يبايع له كخليفة . وكان مما قاله له : « هلمَّ فلنبايعك ، ثم أُخرج معنا إلى الشام ، فإني من أهله بمكان قد علمته ، والجند الذين معي هم أشراف أهل الشام ووجوههم وفرسانهم ، فليس يختلف عليك منهم اثنان ، والشام معدن الخلافة اليوم ، إذ نقله الله إليها »(٥٤) .

استشار ابن الزبير أصحابه في عرض الحصين . لكنهم طلبوا منه ألّا يقبل ذلك منه ، وزادوا على ذلك قائلين : « أتخرج من بلد نصرك الله فيه ، وتفارق حرم الله وأمنه ، وتستعين بقوم رموا بيت الله ، لا خلاق لهم » فأرسل ابن الزبير إلى الحصين : « إن أصحابي قد أبوا أن يتحولوا إلى الشام »(٥٥) . وقال أيضاً : « أما المسير إلى الشام فلا أفعل ، ولكن بايعوا لي هناك ، فإني مؤمنكم وعادل فيكم » . فقال الحصين : « إن لم تقدم بنفسك لا يتم الأمر ، فإن هناك ناساً من بني أمية يطلبون هذا الأمر »(٥٦) .

ومع أن الطبري وابن الأثير يشيران إلى أن ابن الزبير لو كان خرج مع الحصين إلى الشام ، فلن « يختلف عليه منهم أحد »(٥٧) إلّا أن تحليلات بعض المؤرخين المحدَثين ترى عكس ذلك . فيرى أحدهم(٥٨) أن ابن الزبير ، لم يكن يستطيع أن يوافق الحصين ، لأن الحصين لم يبايعه ، وإنما هو يُخرجه معه على غير بيعة له عنده ، وإنما هو مجرَّد وعد بأن يأخذ له البيعة في الشام ، ولم يكن الحصين يمثل قوة أهل الشام كلها ، ولا قوة القبائل الكبيرة فيها، فلو أطاعه ابن الزبير ، ولم يستطع أن يحقق له البيعة . لكان قد أسلم بيده ، وألقى بنفسه في يد بني أمية وأهل الشام » . ويقول الآخر(٥٩) : « وهو (أي ابن الزبير) لم يكن أيضاً يستطيع قبوله ، إلّا إذا قضى على نفسه بالانتحار السياسي » .

ولكن ، يمكن القول بأنه إذا كان الحصين جاداً في عرضه، ويقف وراءه بكل ثقله ، فإنه ، ولا شك ، سيساهم في تدعيم قوة ابن الزبير . إذ أن الحصين يستند في مقدراته على الأعداد الكبيرة التي تتكون منها قبيلته ، والمتحالفين معها . ومن يتمعَّن في طبيعة توزيع القبائل وسكناها في بلاد الشام ، سوف يجد أن الحصين كان يعني ما يقوله . فهو ينتسب إلى قبيلة سَكُون اليمانية ، التي يكثر أفرادها في بلاد الشام . ولهم قوة كبيرة ومؤثرة على مجريات الأحداث في المنطقة . فهذا شُرَحبيل بن السّمط الكندي ، رأس أهل الشام في زمن معاوية ، يقول لمعاوية محذراً إياه من إعطاء بيعته لعلي سنة ٣٤هـ/٦٥٤م : « والله يا معاوية لو بايعت علياً ، لطردناك من الشام »(٦٠) . وهذا مالك بن هبيرة

(٥٤) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٣١ . وانظر ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ ٥ ، ص ١٣٣ .

(٥٥) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٥١ .

(٥٦) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٣١ ــ ٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٣٠ .

(٥٧) مصادر الملاحظة السابقة والصفحات .

(٥٨) أحمد إبراهيم الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ، ص ٤٣٤ ، ٤٣٧ .

(٥٩) يوليوس فلهاوزن : الدولة العربية ، ص ١٦٤ .

(٦٠) نصر بن مزاحم : وقعة صفين ، ص ٤٧ ؛ الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ١٥٩ ــ ١٦٠ ؛ عمر العقيلي : خلافة معاوية بن أبي سفيان ، ص ٣٤ .

السكوني ، يقول لمعاوية ، وقد فشل في إنقاذ حُجر بن عدي الكندي سنة ٥١هـ/٦٧١م : « والله لنحن أغنى عن معاوية من معاوية عنا ، وإنا لنجد في قومه منه بدلاً ، ولا يجد منّا في الناس خلفاً »(٦١) . و ها هو مالك يعيد تحذيره إلى مروان بن الحكم في سنة ٦٤هـ/٦٨٤م . إذ شرط عليه قبل أن يعطيه بيعته أن يستجيب لما تطلبه جماعته منه ، وقال له : « فإن تكن لنا معاوية ويزيد نصرناك ، وإن تكن الأخرى فوالله ما قريش عندنا إلّا سواء ، فأجابه مروان إلى ما سأل »(٦٢) . وعلاوة على ذلك ، فإن في سرعة مبايعة جماعات كثيرة من أهل الشام [فلسطين ، حمص ، قنسرين ، وبعض من أهالي دمشق] إلى عبدالله بن الزبير بالخلافة ، ما يدل على أنه قد كان بمقدور الحصين أن يفعل شيئا ما لترجيح كفّة ابن الزبير ومساندته ، ما دام ذلك المرشح يضمن لهم بعض الامتيازات ، وعلى أية حال ، فإن عبدالله بن الزبير نفسه ، وقد رأى تقاعس من حوله عن الاستمرار في نصرته ، قد ندم على عدم قبوله عرض الحصين بن نمير . كما يشير بذلك الطبري(٦٣) .

وعلى إثر فشل مفاوضاته مع ابن الزبير ، ترك الحصين مكة وتوجه نحو دمشق . فمرَّ في طريقه بالمدينة حيث انضم إليهم هناك بعض من كان فيها من بني أمية . ومع أن بعض الروايات التاريخية تفيد أن أهل المدينة وأهل الحجاز تجرأوا على الحصين وجماعته « فذلّوا ، حتى كان لا ينفرد منهم رجلٌ إلّا أخذ بلجام دابّته ثم نُكِس عنها ، فكانوا يجتمعون في معسكرهم فلا يفترقون » فقالت لهم بنو أمية : لا تبرحوا حتى تحلونا معكم إلى الشام ، ففعلوا »(٦٤) . إلّا أن البلاذري يشير إلى ذلك بقوله : « فلما صار (الحصين) بالمدينة بلغه أن أهلها يريدون محاربته ، فقام رَوْح بن زنباع (الجذامي) على منبرها ، فقال : «يا أهل المدينة ، ما هذا الذي بلغنا عنكم ؟ فاعتذروا وكذبوا عن أنفسهم ، ومضى الحصين ومن معه إلى الشام »(٦٥) .

والخلاصة التي تتضح من هذا البحث أن عبدالله بن الزبير قد ظل مصراً على موقفه الذي اتخذه منذ أيام معاوية والذي يتمثل في مطالبته بتطبيق نظام الشورى ، وعدم موافقته على نظام الوراثة الذي جاء به معاوية . ثم إنه قد بقي في مكة ، وأخذ في إعادة بناء الكعبة . وظل كذلك حتى قُتل فيما بعد ، في عهد عبدالملك بن مروان (٧٣هـ/٦٩٣م) دون أن يحقق الأهداف التي سعى إليها ، وناضل من أجلها .

---

(٦١) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ١٤٤ ؛ عمر العقيلي : خلافة معاوية ، ص ١٧٤ .

(٦٢) المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٩٥ .

(٦٣) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٣١ ؛ وانظر ، سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص ٩٥ ؛ ويرى محمد الطيب النجار أن عبدالله بن الزبير برفضه لعرض الحصين قد ضيّع «تلك الفرصة الذهبية التي كانت ستحقن بها الدماء ويتحقق بها أمله في يُسر وسهولة ، وأصبح لزاماً عليه أن يجري وراء الخلافة في سائر الأمصار الإسلامية ، وأن يجدّد الحرب والقتال مع بني أمية» . (الدولة الأموية في الشرق ، ص ٧٠) .

(٦٤) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٣٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٣٠ .

(٦٥) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، ص ٣٤٨ .

الفصل الرابـــع

محنة الخلافة الأموية بعد وفاة يزيد بن معاوية :

توفي يزيد بن معاوية في بلدة حُوَّارين يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من سنة أربع وستين (الموافق ٦٨٣/١١/١١م) . وكانت خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر[١] . وكانت وفاته «من قرحة يقال لها : السُّكْتَة»[٢] . وكان عمره حين وفاته ثماني وثلاثين سنة[٣] .

كان يزيد قبل وفاته قد عقد البيعة لولده معاوية من بعده . وقد عبَّر عبدالله بن همَّام السلولي (الشاعر المشهور)[٤] عن رأيه حيال هذا الأمر بقصيدة طويلة جاء فيها[٥] :

تَلَقَّاهـــا يزيـــدٌ عن أبيـــــه ... فَخُذها يا مُعاويَ عن يَزيـدا
أديروهـا بنـي حرب عليكُـــمْ ... ولا تَرمُوا بها الغَرضَ البَعيدا
فإن دنياكُمُ بكُمُ اطمأنـــتْ ... فَأَوْلوا أَهْلَها خُلُقـاً سَديـدا
وإنْ عَصَفَتْ عليكم فاعصِبُوها ... عِصاباً تُستَـدَرُّ به شَديـدا

وما إن عقد يزيد البيعة لولده معاوية حتى «ألزمه الفقهاء والرواة وصرف إليه وفود العرب» فكان من أصلح فتيان بني أمية وأفصحهم لساناً»[٦] .

وعقب وفاة يزيد ، جدّد الناس بيعتهم لأبنه معاوية . لكن معاوية كان مريضاً ، وزاهداً[٧] في

---

(١) الطبري : تاريخ، جـ ٢ ، ص ص ٤٢٧ ـــ ٤٢٨ ؛ ابن طولون : قيد الشريد ، ص ٥٠ .

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ، جـ ٣ ، ص ١٣٨٩ ؛ وعند البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ (١) ص ٣٥٧ : «مرض يزيد بعد ولايته الأمر بسنتين من كبده» ويقول في روايةأخرى على نفس الصفحة : «وكان سبب موت يزيد أنه ركض فرساً فسقط عنه وأنه أصابه قطعٌ ، ويقال أن عنقه اندقت» .

(٣) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٢٨ .

(٤) أصله من بني سلول ويلقب أيضاً بالعطار . امتاز بسرعة البديهة وكانت له حظوة وتقدير عند الأمويين . انظر : ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص ص ٥٢٢ ـــ ٥٢٤ ؛ الزركلي : الأعلام ، ٢٨٨/٤ ؛ سزكين : تاريخ التراث العربي م ٢ جـ ٣ ص ١٦ ـــ ١٧ .

(٥) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ (١) ص ٢٩١ ـــ ١٩٢ ؛ أبو تمام حبيب بن أوس الطائي : نقائض جرير والأخطل ، تحقيق أنطون صالحاني ، بيروت (المطبعة الكاثوليكية) ١٩٢٢م ، ص ص ٢ ـــ ٥ ؛ ابن سلّام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، ص ٥٢٢ .

(٦) أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ص ٢ ـــ ٥ .

(٧) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ (١) ص ٣٥٧ ؛ ويقول المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٨٢ : «وكان كثير الفكر في أمر معاده» .

منصب الخلافة ، ويروى عنه أنه أخبر الناس بعدم رغبته في تولّي منصب الخلافة منذ اليوم الأول الذي بايعوه فيه . إذ قال أمامهم في مسجد دمشق : « ... فإني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب (رض) حين استخلف أبو بكر (رض) فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستّة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختاروا له من أحببتم»[٨] .

وقيل إن والدته قد جاءت إليه ، وقالت له : «اجعل الخلافة من بعدك لأخيك ـــ خالد بن يزيد ـــ فأبى ، وقال : «لا يكون لي مُرُّها ولكم حُلْوُها»[٩] . كما أنه أضاف قائلا : «اللهم إني بريء منها ، مُتَخلٍ عنها»[١٠] .

ولعل إصرار معاوية الثاني على تنازله عن منصب الخلافة يعود إلى سببين رئيسيّين . أولهما ، إنه كان زاهداً ، فعلاً ، في الخلافة فلا هو طلبها ولا سعى إليها ، وثانيهما : أنه أراد أن يجنّب نفسه تلك المشاكل كالتي حصلت على والده ، وأخذت عليه معظم وقته وجهده وسوَّدت صفحته ، فأصبح أعداؤه أكثر من أصدقائه . وأضحى الذين يطلبون الثارات كثيرون .

وتتفق معظم المصادر التاريخية على أن معاوية الثاني قد لزم بيته بعد خطبته تلك . فبقيت الأمور الداخلية للدولة على حالها كما كانت في عهد والده يزيد : « فلم يَعزل معاوية أحداً من عمَّال أبيه ، ولا حرَّك شيئا ، ولا أمَرَ ولا نَهى ، وبقي معاوية الثاني كذلك حتى توفي مريضا » في منزله بعد أربعين يوماً من اعتزاله الناس ، وهو ابن تسع عشرة سنة ، ودفن في مقبرة باب الصَّغير بدمشق »[١١] .

وعليه ، فقد أحدثت وفاة معاوية الثاني بن يزيد المفاجئة ، دون أن يعيّن من يخلفه ، اضطراباً في الأمور في شتى أرجاء الدولة الإسلامية . ففي العراق ، قام أهله بطرد الولاة الذين تركهم عبيدالله بن زياد فيهم قبل توجّهه إلى دمشق[١٢] ثم بايعوا لعبدالله بن الزبير وقبلوا تعيين عبيدالله بن يزيد الخَطْمي الأنصاري أميراً على الكوفة[١٣] . وفي خراسان ، نجد أن الأمور قد اضطربت هناك بين أفراد القبائل العربية اليمانية والقيسية ، وتعدّدت الزعامات فيما بينهم ، ولم يتمكن سَلْم بن زياد أو المهلَّب بن أبي صُفْرَة الأزدي أن يمسكا بزمام الأمور للأمويين ، إذ إن معظم أهلها والوا عبدالله بن الزبير[١٤]. كما والى

---

(٨) اليعقوبي : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٢٤١ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٦٨ ؛ ابن عبدالبر : الاستيعاب ، جـ ٣ ، ص ١٣٨٩ .

(٩) انظر : البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ (١) ص ٣٥٩ .

(١٠) المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٨٢ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢١١ .

(١١) راجع : خليفة بن خياط : كتاب التاريخ ، ص ٢٥٥ ؛ البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، ص ٣٥٨ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٣٢ ؛ ابن عبدالبر : الاستيعاب ، جـ ٣ ، ص ١٣٨٩ .

(١٢) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٥٩ ـــ ٤٦٧ .

(١٣) خليفة بن خياط : تاريخ ، ص ٢٥٨ ـــ ٩ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٤٦٦ ـــ ٧ .

(١٤) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٤٨٨ ـــ ٤٩٦ .

أهل مصر عبدالله بن الزبير ورضوا تعيينه لعبد الرحمن بن جَحْدَم الفِهري أميراً عليهم [١٥] . أما في بلاد الشام ــ وهي المركز والسَّند الأساسي لبني أمية ــ فلم تكن الأمور بأحسن منها في الأقاليم الأخرى. إذ بايع أهل حمص وقنّسرين وفلسطين وبعض أهل دمشق عبدالله بن الزبير[١٦] . ولم يبق سوى إقليم الأردن ، وعليه حسَّان بن مالك بن بحدل الكلبي (خال يزيد بن معاوية) ، موالياً لبني أمية[١٧] .

وعلى أية حال ، فلعلَّ أبلغ وصف لحالة الفوضى والاضطراب التي سادت في ذلك الوقت ، ما قاله أَزْنَم الفزاري شعراً تمثَّل به مروان بن الحكم نفسه :

إني أرى فِتَناً تَغْلي مَراجِلُها والحُكْم بعد أبي لَيلى لمنْ غَلَبا[١٨]

ولتفصيل ذلك ، ينبغي أن نشير إلى أنه كانت هناك ثلاث مجموعات تمثل الشخصيات الإسلامية المؤهلة لتولّي أمور الناس . فمنهم من كان يطمح في الوصول إلى منصب الرئاسة ويسعى لتحقيق ذلك بكل الوسائل[١٩] . وفيهم من كان غير راغب فيها ولكن جماعتهم أو المتنفّعين من ورائهم دفعوهم إلى المطالبة بها[٢٠] . أما الفئة الثالثة والأخيرة ، فلم تَسْعَ إليها ولم تطلبها وفضّلت البقاء على الحياد ومراقبة الأطراف المتنازعة . إذ لم تأخذهم أهواؤهم مع أي من الفريقين ، فتركهم الناس على حالهم[٢١] .

ولقد حاول أبناء البيت الأموي ، الذين قدموا إلى دمشق من المدينة مع الحصين بن نمير السكوني ، (بعد وفاة يزيد بن معاوية) ، أن يخرجوا من هذه الأزمة . فكانوا يجتمعون فيما يسمَّى بـ «مجلس

---

(١٥) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٦٧ .

(١٦) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٦٦ ــ ٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٢٣٩ .

(١٧) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٦٧ ــ ٨ ؛ احسان النص : العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، دمشق ، ١٩٧٣م ، ص ٣٠٠ .

(١٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ ٥ ، ص ٣٩ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٢٩ ؛ ابن عبدالبر : الاستيعاب : ج ٣ ، ص ١٣٨٩ ؛ ويقول البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ (١) ص ٣٥٧ : «وكان معاوية ركيكاً ليناً فكُنِيَ أبا ليلى ، وهي كنية كلّ ضعيف» .

(١٩) مثل : مروان بن الحكم (كان الحصين بن نمير السكوني يهوى أن تكون الخلافة لمروان ، انظر : الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٧٤) ؛ وعبدالله بن الزبير ؛ وعبيدالله بن زياد بن أبي سفيان .

(٢٠) مثل : خالد بن يزيد بن معاوية إذ كان مهتماً بالعلوم وبخاصة علم الكيمياء . لكن خاله حسان بن بحدل الكلبي وكذلك مالك بن هبيرة السكوني كانا يريدانه على الخلافة . انظر : الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٧٤ ــ ٤٧٦ ؛ البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ (١) ؛ ص ٣٥٩ ــ ٣٦٠ . وانظر ، لطف الله قاري : نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأموي ، دار الرفاعي ، الرياض ١٤٠٦هـ ، ص ٦٧ ــ ٦٩ ، ١٠١ ــ ١٠٢ .

(٢١) مثل : عبدالله بن عمر بن الخطاب (رض) ؛ ومحمد بن [الحنفية] علي بن أبي طالب ؛ وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رض) ؛ وعثمان بن محمد بن أبي سفيان الذي كان كارها للمشاكل ، ولا يحب قتال أحد ، فنفر عنه الناس .

الملأ»(٢٢) ، وهو أشبه بمجلس العائلة أو العشيرة ، يستعرضون فيه الأحوال العامة ، ويتناقشون فيما بينهم ومع أعوانهم في أمر الخلافة . ويقال أن مروان بن الحكم [الذي لم يكن معروفاً عند أهل الشام ، ولذلك فقد كان متخوفاً من مساندتهم له] قد أبدى رغبته في البيعة لعبدالله بن الزبير . لكن عبيدالله زياد ثناه عن ذلك بقوله : «سبحان الله ، أرضيت لنفسك بهذا ، تُبايع لأبي خُبَيب ، وأنت سيِّد بني عبد مناف ! ، والله لأنت أولى بها مِنْه»(٢٣). ويقال أيضاً ، أن الحصين بن نمير السكوني قد حضر أحد هذه المجالس وأخبر مروان بما كان بينه وبين ابن الزبير في مكة ، وقال لمروان ولبني أمية : «نراكم في اختلاط ، فأقيموا أميركم قبل أن يدخل عليكم [ابن الزبير] شأمكم ، فتكون فتنة عمياء صمَّاء»(٢٤) .

ولتطويق هذه الأزمة ، فقد اتفق القوم في اجتماعهم هذا على أن يتولى مروان بن الحكم منصب الخلافة . وذلك بحكم أنه شيخ قريش ، وسيِّد بني أمية ، كما أنه كان أكبرهم سناً ، وأكثرهم تجربة ، وحنكة ، ودراية في الأمور الإدارية والسياسية(٢٥) . وذلك في مقابل آخرين من بني أمية ، مثل خالد بن يزيد بن معاوية ، الذي كان صغيرا في السن ، وعمرو بن سعيد بن العاص ، وكان قليل التجربة إذا ما قورن بمروان .

وكان على بني أمية وأعوانهم أن يبلغوا الآخرين بقرارهم هذا . ولذلك فقد عقدوا اجتماعاً عاماً في بلدة الجابية(٢٦) ، وأخبروا الناس في هذا الاجتماع بما تمّ عليه الأمر في مجلس الملأ من أمر الخلافة وإسناد ولاية العهد إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، بعد مروان . ويليه عمرو بن سعيد بن العاص (المعروف بالأشْدَق) . واتفقوا على أن يتولى خالد بن يزيد إمرة حمص ، في حين يتولَّى عمرو بن سعيد إمرة دمشق . وكانت بيعة مروان بمدينة الجابية ، في يوم الاثنين للنصف من ذي القعدة سنة أربع وستين(٢٧) . [يوليه ٦٨٤م] .

ويظهر من المداولات التي جرت بين مختلف الأطراف التي تمثلت في مؤتمر الجابية أن مروان لم يحظ بموافقة كثير من أهل الشام الموالين لبني أمية ، إلّا بعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق بأن يعمل وفق

---

(٢٢) أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢ .

(٢٣) الدينوري : الأخبار الطوال ، ص ، ٢٨٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٤٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ٨ ، ص ٢٤١ .

(٢٤) ابن الأثير : المصدر السابق والصفحة . وانظر ، الطبري : تاريخ ، ، جـ ٢ ، ص ٤٨٧ .

(٢٥) انظر ترجمة حياته ، ابن سعد ، الطبقات ، جـ ٥ ، ص ٣٥ وما بعدها ؛ ابن عبدالبرّ : الاستيعاب ، جـ ٣ ، ص ص ١٣٨٧ ــ ١٣٩٠ ؛ ابن الأثير : أسد الغابة ، جـ ٥ ، ص ص ١٤٤ ــ ٦ .

(٢٦) الجابية : قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان قرب مرج الصُّفَّر في شمالي حوران . (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٩١) .

(٢٧) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٥ ، ص ص ٤٠ ــ ٤١ ؛ البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ (١) ص ٤٤٢ : «كان عمرو الأشدق أجدّ الناس في أمر مروان ، وأحسنهم معاونة ومكانفةً له واجتهاداً في صلاح أمره ، وإفساد أمر ابن الزبير ، فقاتل معه يوم المَرْج» ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٤٦٨ ــ ٤٧٦ .

رغباتهم. فهذا مالك بن هبيرة السكوني يشترط على مروان أن يكون لهم كما كان معاوية ويزيد فيهم[٢٨] . ويروي الطبري أن الناس اشترطوا على مروان أن يُنزل البلقاء (من أرض الشام) من كان بالشام من كنده ، وأن يجلعها لهم مأكلة . فوافق لهم مروان على ذلك[٢٩] .

وإذا كان ما اتفق عليه المجتمعون في مؤتمر الجابية قد أرضى بني أمية وأعوانهم ، فهو لم يُرض أغلبية أهل الشام الذين فوجئوا بدورهم بما أجمع عليه بنو أمية . فضلاً عن أن كثيراً منهم كان قد مال إلى عبدالله بن الزبير ورغب في إعطاء البيعة له ، وذلك لما رأوه من إقدام الكثيرين من أهل المناطق الأخرى في إعطاء بيعتهم إليه . فكان أن اتفق رأي زعماء الجماعات المعارضة من القبائل القيسية واليمانية ، وفيهم معن بن ثور السُّلَمي ، وهَمَّام بن قَبيصَة النّمري ، وزياد بن عمرو الأشجعي ، وعمرو بن معاوية العقيلي ، وبشر بن يزيد المرّي ، وثابت بن خُويلَد البَجَلي وسعيد بن مالك الكلبي ، وزُمَل بن عمرو العذري ، وربيعة بن عمرو الحَرَشي ، على أن يتزعم الضحاك بن قيس الفِهري حركتهم في الدعوة لابن الزبير ، فوالاهم الضحاك إلى ذلك ، حيث كان عبدالله بن الزبير قد كتب له «بتوليته دمشق ، فسارعت الناس إلى طاعة ابن الزبير وبيعته فأخذها الضحاك له عليهم»[٣٠] .

وهذا التحول من جانب الضحاك يدعو للتأمل ، فقد كان الضحاك صاحب نفوذ وحظوة عند معاوية ويزيد طيلة فترة خلافتهما . ولعل في عدم وجود مرشح أموي قد دفعه لموالاة عبدالله بن الزبير . وفي اللحظة التي اتفق فيها الأمويون على مروان كخليفة ، كان كل شيء بالنسبة للضحاك قد انتهى ، وكان عليه أن يستمر في الطريق الذي اختاره لنفسه .

وحتى يستطيع الضحَّاك أن يواجه بني أمية وأعوانهم ، فقد كتب إلى أمراء الأجناد يستمدهم : فوجَّه إليه نائل بن قيس الجذامي ابنه في ألفين من أهل فلسطين ، ووجَّه النعمان بن بشير الأنصاري إليه ابن أبي شمر الألهاني في ألفين — من أهل حمص — ، وأمدَّه زُفَر بن الحارث الكلابي بطريف بن حسَّان في ألفين من أهل قنسرين[٣١] .

وأما مروان بن الحكم ، فقد كان عليه ، بصفته رأس النظام الحاكم ، أن يعيد الأمور إلى نصابها . ولذلك فقد استعد لمواجهة الضحاك . فسار بمن معه من بني أمية ، ومن رجالات السَّكاسِك والسَّكون وغسَّان وعَنْس ، حتى وَافَوا حسَّان بن بَحْدَل الكَلْبي في قومه ، في الجابية .

---

(٢٨) المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٩٥ . وانظر ص ٧،٨ من هذا الكتاب . ويروي الطبري أن مالك بن هبيرة السكوني كان يهوى هوى بني يزيد بن معاوية ويحبّ أن تكون الخلافة فيهم (تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٧٤) .

(٢٩) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٨٧ .

(٣٠) البلاذري : أنساب الأشراف ، جـ ٤ (١) ص ٣٥٩ .

(٣١) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٧٤ ؛ أبو تمام : نقائض جرير والأخطل ، ص ص ١٣ — ١٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٤٩ .

والتقى الجمعان وجهاً لوجه في مكان يسمّى مَرْج راهِط[٣٢] وبعد أن فشلت رسل الصلح بين الطرفين ، أخذ كل فريق يعدّ عدَّته للحرب . فكان مروان بن الحكم قائداً عاماً لقواته البالغ عددها ستة آلاف رجل (وقيل ١٣ ألفاً) أكثرهم من الرَّجّالة[٣٣] . وكان عمرو بن سعيد بن العاص على ميمنته ، وعبيدالله بن زياد في الخيل على ميسرته[٣٤] . وكان على رجّالته مالك بن هبيرة السَّكوني . أما الضحاك بن قيس الفهري فقد كان قائدا لأعوانه الذين وصل عددهم حوالي ثلاثة عشر ألفاً (وقيل ٣٠ ألفاً) . وكان زياد بن عمرو بن معاوية العقيلي على ميمنته[٣٥] ، وزكريا بن شَمر الهلالي على ميسرته[٣٦] .

ووقعت بين الطرفين ملحمة عارمة دامت حوالي عشرين يوماً[٣٧] ، وقد وصفتها المصادر التاريخية بأنها « كانت مَقْتَلَة لم يُقتل مثلها في مَوطِن قَط »[٣٨] . وتورد المصادر التاريخية شعراً قاله مروان بن الحكم ، يصوّر فيه ما كان عليه موقف رجالات القبائل العربية حينذاك[٣٩] .

لما رأيتُ الأمرَ أمراً نَهْبـاً	يَسَّرتُ غسَّانَ لهم وكلْبـا
والسَّكسَكيِّين رجـالاً غُلْبـا	وَطَيِّـاً تأبـاهُ إلّا ضَرْبـا
والقَيْن تمشي في الحديد نَكْبا	ومِنْ تَنُوخَ مُشْمَخِرّاً صَعْبـاً
لا يأخُذونَ المُلْكَ إلّا غَصْبـاً	وإن دَنَتْ قيسٌ فَقُلْ لا قُرْبـا

هذا ، وبالرغم من أن جماعة الضحاك كانوا أكثر عدداً وعدَّة من أعوان مروان بن الحكم ، إلّا أن

---

(٣٢) مرج راهط : موضع في الغوطة من دمشق في شرقيه . وراهط : اسم رجل من قضاعة . (ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص٢١) . وجاء في كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي ، جـ ٥ ، ص ٣١٤ : «موقعة مرج راهط إلى جانب زرّاعة الضحاك بن قيس . والزرّاعة يقال لها : جَوْبَر» . ويقول ياقوت في معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ١٣٥ ، الزُرّاعة : عدة مواضع بالشام من فلسطين والأردن منها زراعة الضحاك بن قيس (الفهري) التي يقول فيها عمرو بن مخلاة الكلبي يخاطب بني أمية ويذكر مقامات قومه في حروبهم : في قصيدة طويلة ، منها :

إذا افتخر القيسيُّ فاذْكـر بلاءهُ بزرّاعة الضحـاك شرقيَّ جَوْبَـرا

ويقول ياقوت عن جَوْبر : قرية بالغوطة من دمشق ، وقيل نهر بها . (معجم البلدان : جـ ٢ ، ص ١٧٦) .

(٣٣) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٥ ، ص ٤١ .

(٣٤) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٧٧ ـــ ٤٧٩ . ويقول ابن سعد : الطبقات ، جـ ٥ ، ص ٤٢ : «وكان على ميمنة مروان عبيدالله بن زياد وعلى ميسرته عمرو بن سعيد» .

(٣٥) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٧٧ .

(٣٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٢٤٢ ـــ ٢٤٣ .

(٣٧) ابن سعد : الطبقات ، جـ ٥ ، ص ٤٢ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٧٧ ـــ ٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٥٠ .

(٣٨) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٧٣ ، ٤٧٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٥٠ . وقارن الذهبي : تاريخ الإسلام ، جـ ٢ ، ص ١٦٩ في حديثه عن وقعة صفين .

(٣٩) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٧٨ ؛ المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٣ ، ص ٩٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص١٤٩ .

الهزيمة قد حلّت بهم لسببين ، أولهما ، تمرّد يزيد بن أبي النّمس الغَسّاني في أهل دمشق ، فَغلَب عليها واستولى على بيت المال وبيوت السلاح فيها ، وأخذ يمدّ بها مروان وأعوانه ، فكان هذا أول فتح (نصْر) فُتح على بني أمية[٤٠] . وثانيهما : أن جماعة الضحاك كانوا قد قبلوا هدنة من مروان بن الحكم والتزموا بشروطها ، لكن عبيدالله بن زياد أشار على مروان أن يفاجىء القوم وهم مستريحون في هذه الهدنة « فلما تمّ لهم ما أرادوا وباغتوا جماعة الضحاك ، فأخذوا على حين غرَّة . فكثر القتل فيهم وانهزموا »[٤١] . فيروي الطبري[٤٢] أنه قُتل مع الضحاك في مرج راهط « ثمانون من الأشراف ، كان لكل رجل منهم في العطاء ألفان «من الدراهم» وقطيفة يعطونها مع عطائهم» . كما يشير أبو تمام[٤٣] إلى أنه قد «قد قُتل من قيس تسعة آلاف ومن اليمن ألف وثلاثمائة» . وأما قادة أعوان الضحاك فقد تفرقوا ، إذ لحق نائل بن قيس الجذامي بابن الزبير في مكة ؛ وهرب زفر بن الحارث الكلابي إلى قرقيسياء ، حيث تزعم قومه من قيس ثانية ، وفرّ النعمان بن بشير الأنصاري بأهله وولده من حمص ، لكن أهلها لحقوا به ، وقتلوه[٤٤] .

وأما مروان بن الحكم ، فبقدر ما استبشر بانتصاره ، فقد ساءته كثرة القتلى من الطرفين في مرج راهط ، وقال قولته المشهورة : «الآن حين كبرت سنّي، ودقَّ عظمي ، وصرت مثل ظِمء الحمار ، أقبلت بالكتائب أضرب بعضها ببعض»[٤٥] ! . كما وأنه قد أصدر أوامره لجيشه : « ألا لا تتبعوا مدبراً »[٤٦] .

هذا ، وقد واصل مروان تقدمه ، إثر انتصاره ، فدخل دمشق وبويع له بالخلافة بيعة عامة في المحرم من سنة ٦٥هـ[٤٧] [آب ٦٨٥م] ، وأخذ في ترتيب الأمور الداخلية للدولة . وعمل جهده في سبيل إعادة توحيد الأمة الإسلامية ودرء الأخطار عنها ، سواء في بلاد الشام أو العراق أو مصر أو الحجاز .

وإذا كانت النتيجة المباشرة لمؤتمر الجابية ووقعة مرج راهط أن أعادت الأسرة الأموية تأكيد سيادتها

---

(٤٠) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٧٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٥٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٢٤٢ .

(٤١) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٤٧٨ — ٤٨٠ . راجع ، خليفة بن خياط : التاريخ ، ص ٢٦٠ .

(٤٢) تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٤٧٧ — ٨ ؛ إحسان النص : العصبية القبلية ، ص ٣٠١ .

(٤٣) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧ .

(٤٤) انظر ، الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٤٨٠ — ٤٨١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ص ١٤٩ — ١٥١ .

(٤٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ١٥٠ وشرحها : أن الحمار أقصر الحيوانات ظمأً .

(٤٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٨ ، ص ٤٧٢ .

(٤٧) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٧٢ .

[ولكن كانت في هذه المرة قد أصبحت في يد الفرع المرواني من بيت أميّة ، حيث ظل الأمر في أيديهم حتى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م على يدي العباسيين] فإن النتيجة غير المباشرة لهذه الوقعة أنها عمَّقت جذور الخلاف بين مختلف أطراف القبائل العربية : قيسيَّة كانت أم يمانية ، فقد حاول رجال كل طرف أن يبيّن مدى ما خلّفته هذه الموقعة من فرقة وانقسام . فيقول زُفَر بن الحارث الكلابي [قيسيّ][٤٨] .

لَعَمري لقد أبقت وقيعة راهط ... لحسَّان صَدْعاً بيِّناً مُتَنائِيا
فلا صُلح حتى تَنْحِطَ الخيلُ بالقَنَا ... وتثأر من نِسْوان كَلْب نِسَائِيا
أتذهب كَلْبٌ لم تَنَلْها رماحُنا ... وتُتْرَكُ قتلى راهِطٍ هيَ ما هِيَا
ألا ليت شعري هل تُصيبَنَّ غارتي ... تنوخاً وحَيَّيْ طَيِّءٍ من شِفَائِيا
فقد يَنبُتُ المرعى على دِمَنِ الثَّرى ... له وَرَقٌ مِنْ تحتهِ الشرُّ بادِيَا
ونمضي ولا يبقى على الأرض دِمْنَةٌ ... وتبقى حَزازاتُ النُّفوس كما هِيَا

ويجيب على ذلك عمرو بن الجليّ الكلبيّ [يماني] فيقول[٤٩] :

بَكى زُفَرُ القيسيُّ من هُلْكِ قومِهِ ... بعَبرةِ عينٍ ما يجفُّ سُجُومُها
يُبَكّي على قَتْلى أُصيبَتْ براهِطٍ ... تُجاوِبُهُ هَامُ القِفَـارِ وبُومُهَا
أبَحْنا حمىً للحَيِّ قَيْسٍ برَاهِطٍ ... وَوَلّت شِلالاً واسْتُبِيحَ حَريمُها
يُبكيهمُ حرّانَ تجري دُموعُـهُ ... يُرجّي نِزاراً أن تؤوب حُلُومُها
فَمُتْ كَمداً أو عِشْ ذليلاً مُهَضَّماً ... بِحَسْرةِ نفسٍ لا تَنامُ هُمومُها
إذا خَطَرتْ حولي قُضَاعَةُ بالقَنا ... تَخَبَّطُ فِعْلَ المُصعَباتِ قُرُومُها
خَبَطْتُ بِهِمْ مَنْ كادَني من قَبيلةٍ ... فَمَنْ ذا إذا عَزَّ الخُطُوبُ يَرومُها

وعلى أية حال ، فقد أدى استمرار الصراع القبلي وموالاة هذا الخليفة أو الوالي لفئة دون أخرى ، لأن يكون ضمن العوامل الكثيرة التي ساهمت في سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م .

---

(٤٨) خليفة بن خياط : كتاب التاريخ ، ص ٢٦٠ ؛ الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٨٣ ــ ٨٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ص ١٥٢ ــ ١٥٣ .

(٤٩) الطبري : تاريخ ، جـ ٢ ، ص ص ٤٨٥ ــ ٤٨٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ص ١٥٣ ــ ١٥٤ .

الخاتمـــة

وبعد، فهذه دراسة تبحث في سيرة يزيد بن معاوية . وقد اعتمدت فيها على أقوال المؤرخين القدماء وآراء الباحثين المحدَثين وتحليلاتهم . وحاولت جهدي أن أتمشىٰ مع قواعد البحث العلمي في عرضي للأحداث التي وردت في هذا الكتاب .

لقد تبين لي من هذه الدراسة أن حياة يزيد بن معاوية وعصره قد لفهما السواد الذي تراكم على مر السنين . ولذلك أصبح البحث في سيرته أمراً شائكاً وسط هذا الحشد الهائل من الروايات التاريخية المتضاربة . ولعل شخصية يزيد كانت ستبدو أكثر قبولا لدى الدارسين لولا وقوع بعض الأحداث الدامية في عهده ، والتي استخدم القوة لمعالجتها . وبما أن سلاح القوة وحده لا يكفي لمعالجة أية مشكلة ما لم يكن مصحوباً بالحنكة والدراية والكياسة ، فإن عواقب استخدام هذه القوة في عهده وعلى فترات مختلفة ، قد ساهمت في ازدياد شعور النقمة عليه . وزادت في غلوّ المؤرخين في تسويدهم لصفحات سيرته .

ولعلنا لا نعدو الحق إذا قلنا إن يزيد لم يكن أفضل أهل زمانه ولا أعلمهم ؛ وأنه لم تتوفر له الظروف المناسبة ليمارس مهام سلطاته الرسمية كاملة ؛ وأن أيامه لم تطل لتتيح له الفرصة لإظهار كفاءته وخبرته . ولذلك يبقى الحكم على نجاحه أو فشله من الصعوبة بمكان .

المصادر الأوليـــة

ـــ القرآن الكريم

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) .

ـــ الكامل في التاريخ ، تحقيق ، جي . تورنبرغ ، ليدن، ١٨٦٨ ـــ ١٨٧٠م (طبعة بيروت المصورة ، ١٩٦٥م) .

ـــ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ٧ أجزاء ، القاهرة ، مطبعة الشعب ١٩٧٠م .

ابن أعثم ، أبو محمد أحمد الكوفي (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م) .

ـــ كتاب الفتوح ، جـ ١ ، مخطوطة مكتبة أحمد الثالث باستنبول ، رقم ٢٩٥٦ .

ابن تيمية ، تقي الدين أحمد بن عبدالحليم (ت ٧٢٨هـ/١٣٢٧م) .

ـــ منهاج السنة النبوية ، جزءان ، تحقيق محمد رشاد سالم ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

ـــ الفتاوي ، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد العاصمي ، الرياض ، ١٣٩٨هـ .

ـــ سؤال في يزيد بن معاوية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، بيروت ، ١٩٧٦م .

ابن حجر ، أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) .

ـــ تهذيب التهذيب ، طبعة حيدرآباد ، الدكن ، ١٣٢٥ ـــ ١٣٢٧هـ .

ـــ الإصابة في تمييز الصحابة ، القاهرة ، دار السعادة ، ١٣٢٨هـ .

ابن حَزْم ، علي بن أحمد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م) . جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق عبدالسلام هارون ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٧م .

ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٤هـ/١٤٠٦م) . المقدمة ، بيروت ، ١٩٨٢م) .

ابن خياط، خليفة العُصفري (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م) . كتاب التاريخ ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٧م .

ـــ كتاب الطبقات . ط ٢ ، الرياض: دار طيبة ، ١٤٠٢هـ .

ابن دُرَيد ، محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م) . الاشتقاق ، تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ، ١٩٥٨م .

ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠هـ/٨٤٥م) . الطبقات الكبرى ، تحقيق شيخو . بيروت : دار صادر ، د . ت .

ابن عبدالحكم ، عبدالرحمن (ت ٢٥٧هـ/٨٧٠م) : فتوح مصر وافريقية وأخبارها ، تحقيق ت . توري ، نيوهيفن ١٩٢٢م .

ابن عبدربّه ، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م) . العِقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان . بيروت ، د . ت .

ابن عذاري المراكشي ، محمد : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج ١ ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ليدن ١٩٤٨م .

ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبدالله (ت ٥٤٣هـ/١١٤٨م) . العواصم من القواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب . بيروت ، د . ت .

ابن عساكر ، علي بن حسن (ت ٥٧١هـ/١١٧٦م) . تهذيب تاريخ ابن عساكر ، تهذيب عبدالقادر بدران . بيروت : دار المسيرة ، ١٩٧٩م .

ـــ تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ، تحقيق سكينة الشهابي ، دمشق ١٩٨٢م .

ابن العمراني ، محمد بن علي (ت حوالي ٥٨٠هـ/١١٨٥م) : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، تحقيق قاسم السامرائي ، لايدن ١٩٧٣م .

ابن الطقطقا ، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م) . الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية . القاهرة : المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٧م .
ابن طولون ، محمد بن علي (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م) : قيد الشريد من أخبار يزيد ، تحقيق محمد زينهم محمد عزب ، القاهرة ، دار الصحوة ١٩٨٦م .
ابن ظفر ، أبو عبدالله محمد بن أبي محمد بن ظفر المكي الصقلّي (ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م):
ــ كتاب أنباء نُجباء الأبناء ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٠م .
ابن فضل الله العمري ، أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) : مسالك ابصار في ممالك الأمصار ، تحقيق أحمد زكي ، القاهرة ، ١٩٢٤م .
ابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)
ــ الإمامة والسياسة ، (منسوب إليه) ، تحقيق طه محمد الزيني ، نشر مؤسسة الحلبي بالقاهرة ، بدون تاريخ .
ــ عيون الأخبار ، المجلد الأول ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
ــ الشعر والشعراء ، طبعة ليدن ، ١٩٠٢م .
ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) . البداية والنهاية ، طبعة الرياض ــ ١٩٦٦م .
ابن مزاحم ، نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢هـ/٨٢٧م) .
ــ وقعة صفين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ، ١٩٤٦م .
ابن النديم، محمد بن إسحاق (ت بعد ٣٩٠هـ/١٠٠٠م) . الفهرست ، نشر دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ .
ابن هشام ، عبدالملك (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م) .
ــ السيرة النبوية ، جـ ٢ ، تحقيق مصطفى السقَّا وآخرون ، ط ٣ ، بيروت ، ١٣٩١هـ .
أبو زرعة ، عبدالرحمن بن عمرو الدمشقي (ت ٢٨١هـ/٨٩٤م) .
ــ تاريخ أبي زرعة ، تحقيق شكرالله القوجاني ، دمشق ، ١٩٨٠م .
أبو العرب التميمي ، محمد بن أحمد بن تميم ، (ت ٣٣٣هـ/٩٤٤م) .
ــ كتاب المِحَن ، تحقيق عمر سليمان العقيلي ، دار العلوم بالرياض ، ١٤٠٤هـ .
أبو الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/٩٦٩م) .
ــ كتاب الأغاني ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، طبعة دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٠م .
ــ مقاتل الطالبيين ، تحقيق سيد أحمد صقر ، القاهرة ، ١٩٤٩م .
أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (ت ٢٨٢هـ/٧٩٨م) : كتاب الخراج ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٤٦م
الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب
ــ التمهيد في الردّ على الملحدة والمعطلة ، تحقيق محمد عبدالهادي أبو ريده وزميله ، القاهرة ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م .
البخاري ، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م) . صحيح البخاري . بيروت : دار الفكر ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
البلاذري : أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) . أنساب الأشراف ، جـ ٤ ، قسم ١ ، تحقيق إحسان عباس . بيروت ، ١٩٧٩م ؛ جـ ٣ ، تحقيق محمد باقر المحمودي . ط ١ بيروت ،١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .
ــ فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان ، بيروت ، مكتبة الهلال ، ١٣٩٨هـ .
البسوي ، يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ/٨٩٠م) : كتاب المعرفة والتاريخ ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، ط ٢

بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١هـ .
البيهقي ، إبراهيم بن محمد (٤٥٨هـ/١٠٦٥م) .
ـــ المحاسن والمساوىء ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٠م .
الجوهري ، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٦هـ/١٠٠٥م) . الصِّحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار . ط ٣ ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
الدينوري ، أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) . الأخبار الطوال ، تحقيق عبدالمنعم عامر . بيروت : دار المسيرة ، د . ت .
الزُّبيري ، مصعب بن عبدالله (ت ٢٣٦هـ/٨٥١م) . نسب قريش ، تحقيق ليفي بروفنسال . القاهرة ، ١٩٥١م .
السمهودي ، علي بن أحمد المصري (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) . وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، ط ٣ ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) .
العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبدالله (ت ٣٩٥/١٠٠٤م) .
ـــ كتاب الأوائل ، تحقيق وليد قصاب وزميله ، دار العلوم بالرياض ، ١٤٠١هـ .
العصامي ، عبدالملك العصامي المكي (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م) .
ـــ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٧٩ ـــ ١٣٨٠هـ .
الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٣م) .
ـــ تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق م . ج . دي غويه ، ليدن ، ١٨٨١م .
الفاكهي ، محمد بن إسحاق : تاريخ مكة ، تحقيق ودراسة فواز بن علي الدهاس ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة إكستر ، انجلترا ، ١٩٨٢م .
الفيروزآبادي ، محمد بن يعقوب (ت ٨٢٣هـ/١٤١٥م) . المغانم المطابة في معالم طابه . الرياض : دار اليمامة للبحث والنشر ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .
القالي ، أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م) .
ـــ كتاب الأمالي ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
القروي ، أبو الطيب بن منّ الله .
ـــ رسالة في الردّ على ابن غرسيَّة ، منشورة في الجزء الأوّل من كتاب نوادر المخطوطات ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ، ١٩٧٢م .
القلقشندي ، أحمد بن عبدالله (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) .
ـــ مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، جـ ١ ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، الكويت ، ١٩٦٤م .
المالكي ، محمد (ت ٤٣٨هـ/١٠٤٦م) : رياض النفوس ، جـ ١ ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١م .
المسعودي ، علي بن الحسين (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م)
ـــ مروج الذهب ، جـ ٣ ، طبعة دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٥م .
ياقوت ، أبو عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) : معجم البلدان . بيروت : دار صادر ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .
معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، تحقيق ، د . س مرجوليوث . القاهرة ، ١٩٢٣ ـــ ١٩٢٥م .
يزيد بن معاوية (ت ٦٤هـ/٦٨٤م) .
ـــ ديوان شعر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، بيروت ، ١٩٨٢م .
اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) . تاريخ اليعقوبي ، جـ ٢، دار صادر ، بيروت .

المراجع الحديثـــة

أحمد ، مصطفى أبو ضيف ، دراسات في تاريخ الدولة العربية ، الدار البيضاء ، (١٩٨٣م) .

إدريس ، عبدالله بن عبدالعزيز ، مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ ، نشر عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود ، الرياض ١٤٠٢هـ .

البسام ، لطيفة محمد : «الحركة العلمية في الحجاز من ظهور الإسلام إلى قيام الدولة الأموية (دراسة تاريخية)» . رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود بالرياض ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

حبيبة ، علي : دولة الأمويين ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٧٨م .

حسن ، د . حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسي والإجتماعي ، جـ ١ ، ط ٧ . القاهرة ، ١٩٦٤م .

حسين ، طه . علي وبنوه . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٠م .

حلمي ، مصطفى . نظام الخلافة في الفكر الإسلامي . القاهرة : دار الأنصار ، ١٩٧٧م .

حمادة ، محمد ماهر . الوثائق السياسة والإدارية العائدة للعصر الأموي . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م .

الخربوطلي ، علي حسني . تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٩م .

ـــ ١٠ ثورات في الإسلام ، بيروت : دار الآداب ، ١٩٧٨م .

الخضري ، محمد . محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، جـ ٢ (الدولة الأموية) . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٩م .

الخطيب محب الدين
[تظهر آراءه في تعليقاته وشروحه على كتاب العواصم من القواصم لابن العربي ، طبعة دار المعرفة ، المكتب الإسلامي ، بيروت (بدون تاريخ)] .

خليل ، عمادالدين .
في التاريخ الإسلامي (فصول في المنهج والتحليل) ط ١ ، نشر المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

خليل ، محمد رشاد : المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره ، الرياض ١٤٠٢هـ .

الدوري ، عبدالعزيز : مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، بيروت ١٩٦٢م .

الريحاوي ، عبدالقادر : مدينة دمشق (تراثها ومعالمها التاريخية) دمشق ١٩٦٩م .

الزركلي ، خيرالدين : الاعلام ، طبعة بيروت ، ١٩٦٩م .

زهدي ، بشير : دمشق (أهميتها العمرانية والمعمارية عبر العصور التاريخية) ، دمشق ١٩٨٢م .

سالم ، عبدالعزيز : تاريخ الدولة العربية ، الإسكندرية ، المؤسسة الجامعية د . ت .

السباعي ، أحمد : تاريخ مكة ، جزءان ، ط ٤ ، النادي الأدبي ، مكة المكرمة ، ١٣٩٩هـ .

سزكين ، فؤاد:
تاريخ التراث العربي ، ترجمة محمود فهمي حجازي ، نشر إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٣هـ .
السيف ، عبدالله محمد : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي . ط ١ ، بيروت : نشر المؤلف ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
شاكر ، محمود : التاريخ الإسلامي (العهد الأموي) . بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
الشريف ، أحمد إبراهيم : دور الحجاز في الحياة السياسة العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة .
القاهرة : دار الفكر العربي ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .
شعبان ، محمد عبدالحي : صدر الإسلام والدولة الأموية ، بيروت ، الأهلية للنشر والتوزيع ، ١٩٨٣م .
الثورة العباسية ، ترجمة عبدالمجيد القيسي ، أبو ظبي ، دار الدراسات الخليجية ، ١٩٧٧م .
شعوط ، إبراهيم علي:
أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ، ط ٤ ، مطبعة دار التأليف ، القاهرة ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .
شلبي ، أحمد: التاريخ الإسلامي ، جـ ٢ ، ١٩٦٦م .
آل الشيخ ، نورة عبدالملك ، الحياة الاقتصادية في المدينة في صدر الإسلام ، ط ١ ، جدة : دار تهامة ، ١٩٨١م .
صالحية ، محمد عيسى:
«مؤدبو الخلفاء في العصر الأموي» ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، ١)١٩٨١م) ، ص ص ٣٥ ــ ٧٤ الكـويت .
عاقل ، نبيه : تاريخ خلافة بني أمية . ط ١ ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٧٢م .
عبدالله ، محمد حسن : صورة المرأة في الشعر الأموي ، الكويت ، دار ذات السلاسل ، ١٩٨٧م .
عثمان ، فتحي : أضواء على التاريخ الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
العدوي ، إبراهيم: الأمويون والبيزنطيون ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٣م .
العرينان ، حمد محمد : «إباحة المدينة وحريق الكعبة في عهد يزيد بن معاوية بين المصادر القديمة والحديثة» .
مجلة كلية الآداب ، جامعة الرياض . (الملك سعود حاليا) ، المجلد الخامس (١٩٧٧ ــ ١٩٧٨)، ص ص ٧٩ــ٩٩.
ــ إباحة المدينة وحريق الكعبة في عهد يزيد بن معاوية بين المصادر القديمة والحديثة . قدم له ونشره محمد إبراهيم الشيباني ، الكويت : مكتبة ابن تيمية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
العش ، يوسف : الدولة الأموية ، دمشق ، ط ٢ ، دار الفكر ، ١٩٨٥م .
عطوان ، حسين : الأمويون والخلافة ، عمّان ، دار الجيل ، ١٩٨٦م .
العقاد ، عباس محمود : معاوية بن أبي سفيان ، بيروت ، المكتبة العصرية (د . ت) .
ــ الحسين أبو الشهداء ، القاهرة ، دار الهلال ١٩٨٦م .
العقيلي ، عمر سليمان : خلافة معاوية بن أبي سفيان ، الرياض ، نشر المؤلف ، ١٤٠٤هـ
علي ، سيد أمير : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف البعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨١م .
فرّوخ ، عمر : تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية . ط ٥ ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨١م .
فلهاوزن ، يُوليوس : الخوارج والشيعة ، ترجمة عبدالرحمن بدوي . ط ٣ ، الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٧٨م .
فيصل ، شكري : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٨م .
قاري ، لطف الله : نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأموي ، الرياض ، دار الرفاعي ، ١٤٠٦هـ .

كُلوب ، جون باكَوت: امبراطورية العرب ، تعريب خيري حماد ، بيروت ، ١٩٦٦م .
ماجد ، عبدالمنعم : التاريخ السياسي للدولة العربية (جـ ٢) ط ٣ ، بيروت ١٩٦٦م .
المنَجِّد ، صلاحالدين : معجم بني أُمية، ط ١ ، بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٧٠م .
النجار ، محمد الطيب : الدولة الأُموية في الشرق ، ط ٣ ، القاهرة ، دار الاعتصام ، ١٣٩٧هـ
النّص ، إحسان : العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأُموي ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٧٣م .

كتب صدرت للمؤلف

(١) خلافة معاوية بن أبي سفيان ، الرياض، نشر المؤلف ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

(٢) يزيد بن معاوية : حياته وعصره ، الرياض ، نشر المؤلف ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

(٣) كتاب المِحَن ، لأبي العرب محمد التميمي ، الرياض ، دار العلوم ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م . « تحقيق ودراسة » .

كتب غير منشورة

(١) الدولة الأموية : «تاريخ وحضارة» .

« ABSTRACT »

This book is a study of the life and reign of the second Umayyad Caliph Yazeed Ibn Mu'awiya, who ruled the Muslim World between the years 60 - 64 A.H. (680 - 84 A.D.).

This book covers Yazeed's early life, his father's attempt to nominate him as his successor. Furthermore it deals with certain important events which happened during his years as Caliph. Such events include the battle of Karbala (61/680), the battle of Al-Harra (63/683) and the seige of the Ka'ba (64/684). Finally the book discusses and analyses major aspects of Yazeed's internal and external policies.